ليلة العشق والدم

رواية



ابراهيم عبد المجيد



ليلة العشق والدم

ابراهيم عبد المجيد

رواية



الطبعة الاولى : أغسطس ١٩٨٣

الناشر : مطبوعات القاهرة

الغلاف والرسوم الداخلية : للفنان صلاح عنانى

الخطوط : للفنان محمد بغدادى

لا يصدق · بعد عشرين عاما يقتل « دومة » حسن المداوى · وكيف ؟ · أمام عينيه · كأنه ــ فؤاد ــ ماجاء ليتلقى العزاء فى ابيه · بل ليرى المشهد ــ وان صار معكوسا ــ مرتين ·

عشرون عاما شيء لا معنى له حقا ان لم تبدل فى النفوس ·

يدهشه انه لم يتوقع وجودهما · لم يفكر فيهما · نسيهما كما نسى الناس جميعا هنا · ما الذى جعله يرسل الرساله اللعينة ؟ ··· الوالد الكريم · انا بخير عنوانى · ·· انقطعت صلتهما منذ ·· آه ···

« يا ولدى كبرت وستتركنى يوما » ·

كان فى الثالثة عشرة ·

« اريد سندا يصون شيخوختى » ·

هرب · فى نفسه أراد أن يشغل أباه عن الزواج · فقط يشغله · لم يع الفتى الصغير ان السنين ، اللص الأكبر فى هذا العالم ، كانت مخبأة خلف ثقب يوم هروبه · انفتح فانطلقت كأفراس رهان ·

« ماذا جاء بك ؟ » ·
قال خاله ·
« تزوج أبى أمس » ·
« لم يجف دم امك بعد » ·
صرخت زوجة خاله ·
« لم يمض على موتها أسبوع » ·
نام ·
« نعيده فى الصباح » ·
« يبقى اسبوعا اذا لم يأت أبوه أعدناه » ·

ركض خلف الأسبوع شهر · لحق بالشهر عام امسكت فى ذيله الخيول · صارت عشرين ··

لحظات نادرة تلك التى تتسع فيها داخل الانسان موجات حنين صادق · اتسعت به الحجرة فى واحدة منها وتلألأنورها وبكى · كل شىء من بين يديه تسرب ، ومن أمام عينيه جرى · جفف دموعه وهو يلعن الممثلين الأشرار والمتفرجين العميان · أى جبار هو هذا الزمان المصرى ، الذى يجعل القلوب الصغيرة والكبيرة صلدة صدئة كقلاع الأجداد

من العرب والفراعنة · المصريون الذين عرفوا بالحنين والعويل ، المطرقون دائما الى الأرض فى جلال ، يخرج من بينهم أب وابن ، لا يسأل احدهما عن الاخر ، عشرون عاما فى هذا الزمان · وابتسم بعد أن كتب الخطاب · لقد لازمه طوال الستين الماضية يقين عجيب بأن اباه أبدى العمر · مخلوق ليرى يوم القيامة ، وربما يساعد الملائكة فى جمع عظام الموتى اجمعين · لكن الأب فيما بدا عاش فقط ليسمع عن ابنه شيئا · سمع فانسحقت الفرصة فى أن يراه · ربما لم يشأ ، أو لأن للعيون على العيون عتابا لا تحتمله القلوب ··

استقبل فؤاد البرقية التى تعلنه بموت أبيه ردا على خطابه فأيقن أن ما يقال عن النفوس الطيبة حق · تلك التى تتمسك بالحياة طويلا لتحقق امنية بسيطة كأن تطمئن على حبيب · جميلا كان حزنه بعد أن مزق البرقية ، مثل احساسه الذى لم يفارقه سنوات ، بالعدم · ذلك الزورق اللين السابح فى نهر زئبقى لامع ، ينحدر متسللا دون أن يشعر راكبه ، الى قرار ملىء بصوت الريح · ولم يكن فى اليوم متسع · لا يجب أن يكون لحزنه جمال من أى مصدر · فليسافر الى المدينة التى لا يعرف الآن طعم هوائها ، ولون فضائها ، التى لم ير منها طوال العشرين عاما الا صورة بائسه ، تتكرر فى الصحف كل شتاء ، فى يوم عاصف مطير · وتحتها التعليق الأبدى ·

« الأمواج وقد ارتفعت حتى تجاوزت سور الكورنيش وعربة الحنطور قلبتها الرياح التى فاقت سرعتها ··· الخ

الخ » مما يكتب كل عام كنيا وبلا ملل .

شـــتاء الأسكندرية ليس هكذا ابدا . كان يقول فى السنوات الاولى بعد رحيله . غاضب لكنه جميل واسع . سحبه السوداء ضيف متعجل . فضاؤه يعشق الفضة ويحنو على ضعاف البصر . فى السنوات الأخيرة لم يقل شيئا . لثلاث ساعات فى الديزل فكر كيف سيرى المدينة . لو كان يعرف شعور المولود وهو خارج من الظـلام ! ولأن الديزل مكيف ، لم يشعر بالهواء الذى يتدحرج كالحمام مرحبا ، ومرطبا وجوه القادمين ، قبل باب المدينة باكثر من عشـرين ميلا . وفى « محطة مصر » أحس ببرودة خريفية منعشة . وصل مع بداية المساء .

لم يصدق أن اليوم من ايام يناير . الصورة كانت دائما فى يناير ! . تذكر أن الاسكندرية ، تمضى معظـم ليـــالى الشتاء ، ساهرة تحت القمر والنجوم . الدفء والأضواء يسطعان عليها من البحر، هكذا كان يشعر وهو يركب الدراجات مع أترابه ، يتسابقون فى الليل ، مبتعدين عن جنوب المدينه حيث يعيشون ، الى شمالها حيث الخلاء والمرح . وفى أكثر مقاهيها الخلفيه ، يسهر الناس ويضحكون ، وصوت أم كلثوم العريض اللامع يسرى فى أركان الفضاء البعيدة متوحدا تانس اليه القلوب ، والشاردون الذين يحسون جميعا ، انها مطربة جريحه تغنى وحدها فى دنيا خئون . ماأكثر ما سمع فى الطرقات على نواصى الأزقة ، وهو عائد فوق الدراجة طائرا يضحك على المتخلفين وراءه ، صوتا يلعن الحظ .

وحين استقل تاكسى تساءل فجأه لماذالميفكرفىأبيهفكاد يعود . لابد ان اباه قد دفن . قال . لقد تزوج ولابد أنجب . والا كيف مضت السنون . انه لا يذكر وجه زوجة أبيه . لا يعرف الاولاد . ولا يذكر وجه أبيه نفسه .

ـ الى أين . ؟

قال السائق . لعله لم يدفن بعد . فكر . لعله يراه فلا ينساه .....

وحين صار التاكسى على الشاطىء الجنوبى لترعة المحمودية ثقل الظلام . عشرون عاما حطمت المصـــابيح . اهتز التاكسى كثيرا بفعل المطبات والحفر العميقه . رأى على الشاطىء تلالا غريبه من الأخشاب والبراميل أشد سوادا من الليل . قبل هربه كان الشاطىء خاليا الا من عشتين لبعض اللصوص ، ومدرستين جديدتين على الجانب الآخر للطريق . ازيلت العشتان بلا شك ، فتلال الاخشاب والبراميل عالية عريضة موازيه لطول الشاطىء . أما المدرستان فقد ارتفعت اكوام القمامة أمام سورهما فساوته . وحين لاحت له أضواء صفراء مزدحمه اعلنته بموت أبيه ، لم يفكر فى العودة ، وندم على ذلك فيما بعد .

« أينما تكونوا يدرككم الموت ...

توقف التاكسى وصوت المقرىء الخشن يتسرب اليه من النوافذ المغلقة .

ترك التاكسى ثم تردد فى التقدم . السرادق ممتد أمام البيوت القليله المتجاورة فى فزع . لو فتش سيجد خطوطه

عليها ٠ لو عبرها سيدخل فى الفضاء الواسع ، الذى كان يصطاد فيه العصافير ويلعب الكره ٠ لو دخل حجراتها لشرب وأكل وضحك ، وذكرته اكثر من امرأة بانه أخ لابنائها فى الرضاعة ٠ لو التفت خلفه سيقذف حجرا يعبر مياه المحمودية الى الشاطىء الآخر كما كان يفعل متسابقا مع اصحابه ٠ وربما أصاب « مراكبية » مركب محملة بالقطن أو الكسب ٠ ومن فوق سطح منزله ستخترق ظهره أشعه أرسلتها عينا سعاد أجمل الفتيات وأول من لعب معها «العروسة والعريس» لكنه صافح ثلاثة من الرجال قاموا لاستقباله ٠ لم يعرفهم ولم يعرفوه ٠ ما كاد يقف متحيرا حتى أقبل نحوه عجوز يرتعش ٠

ـ عم محمود ٠

صوته كاد يعود الى حلقه ٠

ـ لا حول ولا قوه بالله ٠

هتف العجوز الذى اندفع اليه فؤاد يحتضنه ٠ لم يكن فى الموقف رجلان يتعرفان على بعضهما بعد طول فراق ٠ ربما كان الأمركذلك عند العجوز ٠ فؤاد كان يشعر بالخوف ٠ ادراك مبهم سيطر عليه بأن الجالسين فى السرادق سيقومون ويضربونه ضربا قد يؤدى الى موتـه ، لذلك كان تشـبثه باحضان الرجل غريبا ٠

لكن اكثر الجالسـين اقبلوا يصـافحونه ٠ يعزونه والدموع تطل من اكثر من عين ٠ والأصوات المترحمة على الميت تتداخل كانها لغط ٠ افسح له المستقبلون الثلاثة مكانا

امامهم ٠ انه ابن الميت الجديد يتلقى العزاء ٠ فوق الأريكه العاليه التى تتصدر السرادق كان شيخان ٠ ختم الذى يقرأ تلاوته بسرعه ٠

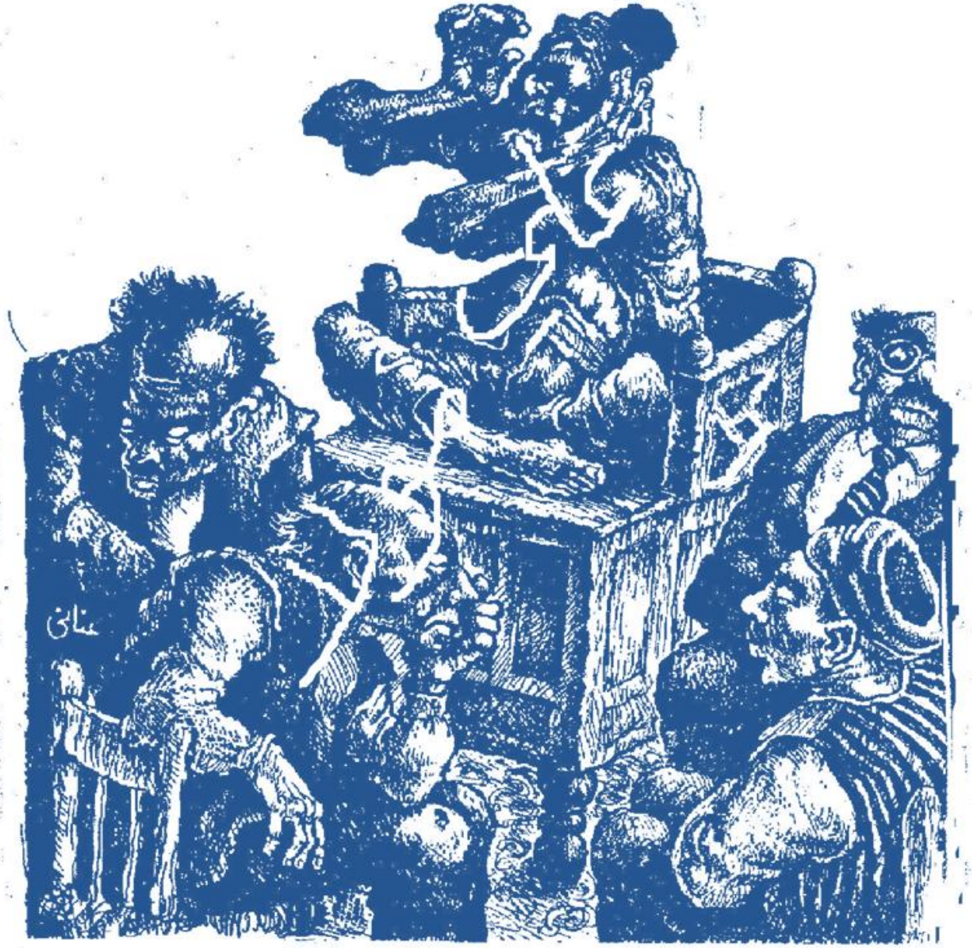
كيف تاه أبونا آدم عن أمنا حواء سنينا طويله ٠٠٠
تحدث ٠٠٠
حكمة الله شاءت أن يلتقيا ٠٠٠
اللقاء الاكبر يوم القيامة ٠
قال ٠٠٠
قطار الدنيا هزيل ٠
قطار الآخرة حق ٠
هدد وتوعد ٠٠٠
الناجون من يدركون عبر الزمان ٠

وفى نفسه كان فؤاد يتساءل اين اخوته من أبيه ؟ هل سيصل الخبر الى زوجة ابيه ؟ كيف سيدور الحديث الليلة ؟ اى نوع من العتاب سيكون ؟ لكنه فارق السرادق بسرعه بعد الواقعة ٠ بكى حقيقة حين عرف أن زوجة أبيه انجبت ولدين ماتا خلف بعضهما فلحقت بهما منذ علم ٠ وأن أباه امضى العـــام الأخير تبلل دموعه الارض ، وحين وصل الخطاب قرأه عليه الناس لانه عمى ، وابدوا اســـتعدادهم لاصطحابه اليه ـ فؤاد ـ بالقاهرة ، لكن أباه رفض وأمضى الليل يضحك والنهار ، فطارت به السعادة الجبارة من فوق الدنيا مفتوح الثغر ، وكانت الوصية سرادقا يليق بمكانة ابنه الذى لا بد صار شيئا عظيما ، ودل ـ ابوه ـ الجيران على نقود ادخرها ٠

كأنه كان يعرف . قال فؤاد فى نفسه وهو يتحسس المائة جنيه ، التى جمعها له زملاؤه فى المكتب ، وساهمت فيها النقابه ، وصندوق الزماله ، وادارة الرعاية الاجتماعيه .

انتهت القصه المؤثرة بسرعة . ما كان سيحدث لو لم يأت ؟ . مط شفتيـه وهو يدرى . تاق أن تنتهـى الليله . طالت وطالت وطالت وما انتهت الا بدم .

قتل « دومه » حسن المعداوى فجاة . قام وتقدم ووقف أمامه وصـرخ « يا عضو المجلس ... » وانطلـق الدم من العنق الى سقف السرادق كقذيفه ، فأصاب القريب والبعيد .



لقد انتظم المعزون بعد أن جلس . ارتفع صوت المقرىء الثانى « وسلك » اذ أشعلت فيه المناسبة الحمـاس . رأى فؤاد أكثر من سيارة مقبلة تقف جميعها بعيدا عن السرادق بمسافة قليلة ، وينزل من أولها البيضاء الطويلة ، شخص لا تتضـح معالمه ، يتقدم البـاقين الذين نزلوا من بقيـة السيارات .

لاحظ أن الذى نزل من السيارة البيضـاء يظلع فى مشيته . حين اقترب عرفه فؤاد . انه حسـن المعداوى . صافحه ولم يبد أن حسن قد عرفه بدوره . لم ينتبه فؤاد الى البدله الأنيقة التى يرتديها حسن ، ونسى أنه نزل من سيارة طويلة بيضاء .

انشغل بمصافحة بقية الرجال . كان آخرهم دومة . عرفه فؤاد ولم يعرفه الآخر أيضا . الذى أدهش فؤاد بحق ، هو أنه ماكاد ينتهى من مصافحة دومه آخر الرجال ، حتى التفت ليرى أكثر من كانوا جالسين واقفين ، ثم بدأوا يجلسون . ازدادت حماسة المقرىء ، ولم يستطيع فؤاد أن يمنع نفسه عن ترديد بصره فيما بين حسن ، الذى كان أكثر من رجل يفسح له مكانا ليجلس ، ودومة الذى جلس بعيدا . كهل « حسن » علا جسمه شحم لم يكن أحد ممن عرفوه قديما يتوقعه . ولا يتوقع البدلة السوداء الأنيقة ، التى تحتها صديرى أسود ، وقميص أبيض لامع ، ورباطعنقأسود . كان دائما حافيا ، ممزق الثياب ، مجدور الوجه ضيق العينين . الآن يبدو ناضرا بهناء عجيب . « دومة » مايزال عريضا ، لكنه صار ناتىء العظام . حين مال كل من حسن ودومة يحدث أحد الجالسين ، أدرك أنهما يسألان عنه . وسط التلاوة قام دومة ، وتقدم الى فؤاد يصافحه مرة أخرى ويحتضنه . يعزيه ويرحب به فى بيته القديم ، ثم ابتسم .

هكذا كان . فتى غير عادى وجهه المستدير سمين بغير ترهل . أنفه أفطس . عيناه مدفونتان . شفتاه غليظتان . مربع الجسد وطويل . لايعرف أحد من أين اكتسب اسمه الغريب الذى اشتهر به . قالوا دائما أن جسمه القوى ، لايناسب عمره الصغير ، انما هو نتيجة للضرب غير المعقول الذى يلقاه دائما فى البيت والمدرسة وأقسام البوليس . كان صبيا لم يبلغ السادسة عشرة ويستطيع هزيمة عشرة رجال . لم يره أحد الا فى مشاجرة أو عبث ، أو جالسا يحكى

حكاية المخبر الذى اغمى عليه ، من فرط ضربه فيه ـ فى دومة ـ . لكن أهل الحى لم يخشوه . لم يكن يسرقهم أو يؤذيهم . يدافع عنهم اذا اقتضى الحال .

حسن لم يفعل مثل دومة . بعد أن همس اليه من يجاوره ، عاد برأسه واستند بظهره الى المقعد . قال شيئا بالتأكيد لأن فؤاد رأى شفتيه تتحركان . اثار الوضع الغريب لكل من حسن ودومة فضول فؤاد . حسن الذى أراد قتل دومه منذ عشرين عاما ، يتقدم وخلفه رجال . دومه القوى الجسور يتراجع الى الذيل . كانا معا يعملان فوق «المعدية» القريبة التى تنقل الناس بين شاطىء ترعة المحمودية . لايعرف فؤاد ما اذا كانت لا تزال موجودة أم لا . الله ، الذى لا يعرف أحد كيف تمضى مشيئته ، كثيرا مايضع سره فى اضعف خلقه . حسن كان أضعف الخلق ، ونجح فى بقر بطن دومة بسكين من أجل « وردة » . كان غريمه فى حب يائس . هكذا تردد فى الحى . لم يعرف أحد أن فؤاد كان يمضى معها نهارا عريضا فى الليل الضيق . ربما لايعرف أحد أنه ذهب الى السرادق الذى أقامه «عم سمسم» ليتلقى العزاء فى ابنته ، أجمل مخلوقات الارض .

« حضور الأطفال للمآتم قال سيئى »
قال أبوه الذى يتقبل ـ فؤاد ـ فيه العزاء الآن .
صدقت أمه على الكلام .
ذهب ولم يقل لأحد .

دومة وحسن كانا صامتين شاخصين الى الارض . كل

منهما لايكاد يستقر فى جلسته . حسن كان ينكش فى الرمل المفروش بخيزرانة رفيعه ، وكثيرا ما يضرب الأرض بقدميه ويزفر . انصرف دومة وسط القراءة ولم يصافح أحدا . انصرف حسن بعده . فؤاد بعد القراءة . بالقرب من«المعدية» تقدم خائفا وهو يسمع الأنين المتحشرج ، الصادر من عند الشاطىء . وجد دومة غارقا فى الدم .

ظل فؤاد ينظر الى دومة مرة والى حسن مرة . رآهما متوترين . لم يفكر أن الليله تشبه البارحة كما يقال . مختلف وضعهما الآن . لايمكن أن توجد بينهما امرأة . لاتوجد امرأة مثل وردة التى لابد قد عرفاها أفضل منه . كان صغيرا . لكن ليس كل مايراه الصغير تمحوه الأيام ...

فجأة تحط البلاهة فوق الوجوه . الأعرج فى دكانته لايشترى ولايبيع . اتهم فى حادث لواط مع صبى فتحول الكون كله الى ضمير متعنت . دكانه جادو مكتظه بالجالسين للغداء من عمال شركة الملح والصودا . دكانة السيد البرعى كذلك . ليس من بين الجالسين من يفكر وقت الجوع هذا فى الجنة . متعبون . ولا فى عرائس البحر . صفر الوجوه غائرو العيون ، مشدودون الى الوراء . لو سألتهم عما يشغلهم ، لقالوا هل حقا ستقوم القيامة يوم الثلاثاء كما قال المنجم الهندى ؟ ولاستمروا فى الطعام . سينساهم الله . وليس هناك أسعد ممن تقوم القيامة وهو جالس يأكل فى دكانه . لكن وردة تخطر قادمة من ناحية « المعدية » . حافيه كعادتها ترتدى جلبابها المورد بالاخضر . القصير الكاشف عن

ربلتى مـــاقيها اللدنتين الثقيلتين : تمسـك وردة دائمـا بالجلباب عند جانب فخذها اليسرى ، وتثنيه خلفها فيضيق على الردفين والفخذين يجسدها . تلمع ذراعاها العاريتان تحت ضوء الشمس التى لايعرف أحد أن أشعتها ترتد اليهـا منعكسـة على اللحـم المخملى البارق . لا يدرك هذا الا الشمس . من طوق الجلباب الواسع يواجـه نحـر وردة المنحوت ، الدنيا بقاعدة مستديرة من النور الخاطف ، يطل من بينها لسان عصفور جرىء تحاصـره كرتان صغيرتان خطرتان قلقتان . ويحمل النحر المنحوت قمرا ظنه الناس يهجع بالنهار فى بلاد العفاريت .

لكن ليس للقمر فم وردة . كرزة فوق كرزة استوت اذا افتر ثغرهما كشف عن لؤلؤ جهله الغواصون ردهم الجـوع الى الأحلام ، تتبدد مع الصباح المسرع فى بلاهة كأنما يريده حقا احد . فوق الكرزه العليا ينام الأنف الصغير الساخر تحرسه العينان يطل منهما النهار والليل فى يوم عجيب . يوم تنساه دائما لأنك تراه كل يوم فتشعر كأنه أول مرة . يتعاقب – اذا تعاقب – فلا تكون بلادة ولاملل . يلمع فـوق الجميع الجبين بضوء مبهر ، يغطيه الشعر الليلى الثقيـل الذى تترك خصلة منه تلمع ظاهرة تحت رباط رأس مغر . بمبى تتدلى من محيطه كرات صغيرة خضراء مدندشه بالترتر الأبيض الصقيل يبعثر انوار النهار الغائب فيرهقهـا وهو يلقى بها على الأرض ، مترجرجة كبقع الزئبق فى كل ناحية . « الرحمة يا أرحم الراحمين ! » .

لكنها تتهادى متأودة بتلقائية مقصودة . سكون يحط على الدكانتين وغيظ . تغوص بين لحم الجالسين فى دكانة جادو قاصدة فترينة الحلوى . من صدرها تخرج قرشا تلقيه فى خفة على البنك امام عم جادو الذى يخبىء سيفا أثريا يشرعه حين يتشاجر مع السيد البرعى منافسه على اجتذاب الزبائن ، وحين يريد قطع ساق قطة ! .

« كم قطاقطعت ساقه ياعجوز ؟ » .

تقول بلا خجل .

« اللبؤة » .

يضيق صدر العجوز الذى جعل قطط الحى كلهـا تعرج . تكون قد تركت الجلباب ، فيعود متزلقا الى وضعـه الطبيعى . من الحلـوى قطعتين تأخذ . تنفلت عائدة فى ركبها النار والاحباط . تعود تضم جانب الجلباب ، تبتسم مدركة أن الشمس التى فوقها تبحث عن ليل . تبتعد . تقترب الأحلام وتثقل .

أى ديدان الأرض كم أنت لبؤة ؟

ما الذى يقوله الشيخ عن العظة فى الموت ، والعبرة فى الحياة . هل حقا أكلت النار الجسد المضىء ؟ . لماذا يتذكر فؤاد ذلك الآن ؟ مافائدته ؟ . لعله يذكر أيضا كيف كان يلعب الكرة كالزنبرك ، ويصرخ الأطفال هاتفين مشجعين . لايرى وجها من وجوه أصحابه . كبروا مثله بلا شك . مات من مات على الحدود الشرقية . الباقون احبوا فاخفقوا فانتحروا ، أونجحوا فى السفر

الى بلاد النفط فتزوجوا ورحلوا . لم يبق من « الزمان
الاول » غير العجوز الذى تعرف عليه ، ودومة ، وحسن .

يرى ــ فؤاد ــ دومة يبتسم رغم القلق البادى على
وجهه . يكاد يبتسم هو أيضا فيدرك أن ماحوله يخصه .
لايعرف أن حسن المعدواى ينظر اليه بين الحين والحين ويكاد
ينفجر . مايبدو عليه من قلق لايليق به وهو عضو المجلس
المحلى للمدينة عن الحى ! ، الذى يهيىء نفسه لعضوية
مجلس الشعب للدولة عن الدائرة . لايجب أن يفقد أعصابه
أبدا أمام مخلوق أقل منه فيتساوى معه ، أو أكبر منه فيخسر
ثقته . قاعدة موزونه استنها لنفسه وهو فى السجن ، الذى
قرر أن يخرج منه ليحكم . فؤاد هذا هو الذى أنقذ دومة فلم
يمت واعترف فقبض عليه ــ حسن ــ ليقضى ثلاثة أعوام ،
لاطه فى العام الأول ثلاثة رجال كانوا معه فى الزنزانة
مائة مرة .

« الدور دائر » .

لم يستطع . كانوا كرماء فشجعوه . لم يستطع
« انهق كحمار » .
قال لاحدهم . ضحكوا بهستيريه وضربوه بالأقدام على
قفاه .

« الدور دائر » .
لم يستطيع . شجعوه كثيرا . لم يستطيع .
« خر كبقرة » .

قال متوسلا . اشبعوه ركلا . بعد النزيف والجرح ذى
الألم الفظيع ، نقلته ادارة السجن الى زنزانه أخرى بها
مسجونون طيبون . !
« لماذا انتظرت كل هذا الوقت » ! ؟ .
صفعه الصول على قفاه . أمضى شهورا لا يستطيع
الجلوس معتدلا .

فى كل مــرة حاول الجلوس وفشــل ، أحصى العدد
الجهنمى . ثلاثة فى مائه تعنى ثلاث مئات . وفى عام واحد .
التاع شقاء وألما وانسحاقا . خرج وانتظر خروجهم فخذلوه .
مات أحدهم وقتل الثالث الثانى ، فأخذ حكما جديدا ، ولعله
مات الآن . لم تفارقه عاده الخوف من الجلوس على مقعد بعد
شفائه . وقت الفسحه ــ فى السجن ــ كان أبشع الأزمنة ،
خاصة حين تستضيف ادارة السجن غريبة الســلوك ،
بعض الفــرق الرياضــيه من الشــركات ، لتلعب مع
رياضى المسجونين . تخرج الادارة على النظام ، ويصــف
المسجونون المقاعد حول الملعب ليجلس فوقها المســئولون
والمسجونون الكبار . لم يحاول أن يجلس . كان يدور حول
الملعب متألما كثور . شفى لكنه يتالم للجالسين جميعا ! .
بعد أعوام قليله من خروجه تخلص من هذا الرعب المقزز .
سال نفسه السؤال العبقرى . كيف ستثق فى نفسك أمــام
المسئولين الكبار ، ممن تزمع الجلوس معهم فى المســتقبل
القريب ؟ . الجلوس باتزان أول مظاهر الثقة بالنفس . ماذا
يقلقه الآن اذن ودومة مجرد حشرة من اتباعه سينتهى منها
الليلة . قملة سيسحقها . انه ــ حسن ــ ليدرك ان الحاضر

والغائب ، يعرف اصله وفصله ، ولا يجرؤ على التفكير فيه او ذكره حتى لنفسه فى خلوة مظلمة . آه . ماكان يجب أن ياتى الليله حقا . لماذا ؟ . لايعرف . لايستطيع أن يتخلص من ضيقه المفاجىء . لكن متى يتخلى العضو البارز بالمجلس المحلى ، الذى يعد نفسه للعضوية الكبرى عن الحضور الى أى مناسبة .

لقد صرح فى الصباح ، انه سيحضر العزاء فى الفقيد الذى لاأهل له ولاولد . فهو ـ حسن ـ أب للجميع« سيصبح بمشيئة الله الواحد الاحد أبا للدائرة » . قال هذه لنفسه اعتذر عن عدم الحضور لموكب الجنازة لانشغاله باجتماع المجلس . انه أب للجميع حقا . فالمشروع الذى تقدم به اليوم دليله . بناء قريه لليتامى على الطرف الجنوبى للمدينة . مقلب الزبالة الضخم الذى تخـــرج منه الديدان اللولبيه ، والفئران القذرة تهاجم البيوت الجميلة ، سيحرق نهائيا . الملجأ العظيم مكان المقلب ! . انه لايخجل من القول بأنه ولد يتيما . لايقول أن عم سمسم وجده ملفوفا فى خروق قديمة فوق شاطىء ترعة المحمودية ، فأخذه ورباه وقال ولد يعيننى. لو قال سيصدقون على كلامــه ظنا أن هذا يبهجـــه . الا يقوله ؟ . حسن يعرف عجينة الجبن ، وحماقة النفاق فى بعض الاحيان . ورغم أنهم يعرفون ذلك دون أن يقوله ، فهم يقولون انه يتيم كما يقول ! . لقد صرح ان القرية لن تكون ليتامى الحى . اهل الحى كرام ليس بينهم يتيم واحد ، وهو يفخر بهم ، ويزهو على ممثلى الاحياء الاخرى كثيرة اليتامى والمتسولين . لكن الاقتصار فى العمل على حى واحد انانيه .

فالمدينة الكبيرة ام للحى الصغير . من يذهب الى ميادينها سيصطدم بعشرات من الايتام يمسحون الاحذية وهم حفاة . يبيعون الكبريت . يسرقون . لايستحمون فيعلوهم قشــف كالصدأ . يتبرزون فى الطرقات فيشوهون جمال كل شىء . يتشاجرون فيقطعون وجوه بعضهم بالأمواس . هؤلاء لابد من جمعهم ، اذا علمناهم ونظفناهم وأطعمناهم وكسوناهــم نستطيع أن نبيعهم للأثرياء العرب » . لم يقل هذه فى الاجتماع . رئيس المجلس لايجب أن يعلم شيئا عن صلاته الكبرى الآن . عليه ـ الرئيس ـ فقط تسهيل توفير الاسمنت والاخشــاب والحديد وسائر مواد البناء . والمشروع الكبير لن يستغرق تنفيذه اكثر من عام . مطلوب حجرات متجاورة أنيقة . دورات مياة « انيق » ! . ملاعب كثيرة واسعة خضراء . بعد ذلك اعلان عن الموظفات . مربيات فاضــلات مطلقــات وأرامل محرومات من الحب يتدفقن حبا على الايتام .

يعرف حسن على نحو مفاجىء ، أن لقلقه مصدرا آخر . لم يكن رئيس المجلس واضحا . ابدى مخاوف حمقاء ، من أن يقدم تسهيلات ، ولايستطيع حسن اتمام المشروع . الرئيس الأريب ذو الأنف الطويل القوى يتحسس طريقا وسط الدخان . لكن حسن لم يعطه الفرصه . ان لم يساعده رئيس الحــى سيقوم هو بالمشروع وحده . سيعلن فى كل مكان أن رئيس الحى لم يوافق على أعظم مشروع انسانى . اجل . هكذا هدد . الرئيس الذى اطلق انفه اغلقه ، ووعد بالموافقة . ليس ذلك مصدر القلق اذا . يضيق صدره . العضو البارز الذى خرج من السجن بشهادة حسن سير وســـلوك ، ليعمل فى

والغائب ، يعرف أصله وفصله ، ولا يجرؤ على التفكير فيه أو ذكره حتى لنفسه فى خلوة مظلمة . آه . ماكان يجب أن يأتى الليله حقا . لماذا ؟ . لايعرف . لايستطيع أن يتخلص من ضيقه المفاجىء . لكن متى يتخلى العضو البارز بالمجلس المحلى ، الذى يعد نفسه للعضوية الكبرى عن الحضور الى أى مناسبة .

لقد صرح فى الصباح ، أنه سيحضر العزاء فى الفقيد الذى لاأهل له ولاولد . فهو ـ حسن ـ أب للجميع» سيصبح بمشيئة الله الواحد الأحد أبا للدائرة » . قال هذه لنفسه . اعتذر عن عدم الحضور لموكب الجنازة لانشغاله باجتماع المجلس . انه أب للجميع حقا . فالمشروع الذى تقدم به اليوم دليله . بناء قريه لليتامى على الطرف الجنوبى للمدينة . مقلب الزبالة الضخم الذى تخرج منه الديدان اللولبيه ، والفئران القذرة تهاجم البيوت الجميلة ، سيحرق نهائيا . الملجأ العظيم مكان المقلب ! . انه لايخجل من القول بانه ولد يتيما . لايقول أن عم سمسم وجده ملفوفا فى خروق قديمة فوق شاطىء ترعة المحمودية ، فأخذه ورباه وقال ولد يعيننى . لو قال سيصدقون على كلامه ظنا أن هذا يبهجه . الا يقوله ؟ . حسن يعرف عجينة الجبن ، وحماقة النفاق فى بعض الاحيان . ورغم أنهم يعرفون ذلك دون أن يقوله ، فهم يقولون انه يتيم كما يقول ! . لقد صرح أن القرية لن تكون ليتامى الحى . أهل الحى كرام ليس بينهم يتيم واحد ، وهو يفخر بهم ، ويزهو على ممثلى الاحياء الاخرى كثيرة اليتامى والمتسولين . لكن الاقتصار فى العمل على حى واحد أنانية .

فالمدينة الكبيرة أم للحى الصغير . من يذهب الى ميادينها سيصطدم بعشرات من الايتام يمسحون الاحذية وهم حفاة . يبيعون الكبريت . يسرقون . لايستحمون فيعلوهم قشف كالصدأ . يتبرزون فى الطرقات فيشوهون جمال كل شىء . يتشاجرون فيقطعون وجوه بعضهم بالأمواس . هؤلاء لابد من جمعهم . اذا علمناهم ونظفناهم وأطعمناهم وكسوناهم نستطيع أن نبيعهم للأثرياء العرب » . لم يقل هذه فى الاجتماع . رئيس المجلس لايجب أن يعلم شيئا عن صلاته الكبرى الآن . عليه ـ الرئيس ـ فقط تسهيل توفير الاسمنت والاخشاب والحديد وسائر مواد البناء . والمشروع الكبير لن يستغرق تنفيذه اكثر من عام . مطلوب حجرات متجاورة أنيقة . دورات مياة « أنيق » ! . ملاعب كثيرة واسعة خضراء . بعد ذلك اعلان عن الموظفات . مربيات فاضلات مطلقات وأرامل محرومات من الحب يتدفقن حبا على الايتام .

يعرف حسن على نحو مفاجىء ، أن لقلقه مصدرا آخر . لم يكن رئيس المجلس وافقه . ابدى مخاوف حمقاء ، من أن يقدم تسهيلات ، ولايستطيع حسن اتمام المشروع . الرئيس الأريب ذو الأنف الطويل القوى يتحسس طريقا وسط الدخان . لكن حسن لم يعطه الفرصه . ان لم يساعده رئيس الحى سيقوم هو بالمشروع وحده . سيعلن فى كل مكان أن رئيس الحى لم يوافق على أعظم مشروع انسانى . أجل . هكذا هدد . الرئيس الذى اطلق أنفه اغلقه ، ووعد بالموافقة . ليس ذلك مصدر القلق اذا . يضيق صدره . العضو البارز الذى خرج من السجن بشهادة حسن سير وسلوك ، ليعمل فى

بوفيه شركة الغزل ، ثم ساعيا لمكتب سكرتير رئيس مجلس الادارة ، وسرعان ماترك العمل وافتتح كشكا على شاطىء المحمودية باع فيه السجائر والقصب ، وما لبث أن اشترى عربة نقل بمقطورة ، فخطا خطوة اكبر اذ صار بعد سنوات معدودة ، صاحب أكبر اسطول نقل فى المدينة ، ولديـــه أكبر « زريبه » لتسمين البهائم ، وأول مزرعة سمكية على الأرض الخراب خلف الحى ، ينافس بها بحيرة مريوط التى بدأت تجف ، والبحر الأبيض المتوسط الذى تراجعت أسماكه بعد انقطاع طمى النيل • هذا العضو البارز يضيق صدره ! • يجب أن ينهض الآن ويجلس مع نفسه ، ليعرف أى خطأ وقع فى الكون الليله ! • يقول لنفسه • ليس فؤاد مصدر الضيق • لو أراد حسن يقتله الليله ، ويلقى بجثته فى الترعة لتتعفن وتنتفخ فتعيش داخلها القراميط ! •

يكاد ينهض لولا أنه بحدس عبقرى ، يدرك أن المقرىء لم ينته •

— هذا « نص » قرآن ! • ربع القرآن لايكون طويلا هكذا ! •

يهمس الى من يجاوره • يرفع وجهه ناظرا الى فؤاد لايقصد هذه المره • تلتقى العيون مصادفة • يحـــول فؤاد عينيه مرتبكا • ما كان عليه أن ينظر كثيرا الى حسن • لو أراد أن يعرف قلديه فرصة فيما بعد • لكن هذا ماحدث على أى حال •

يكاد حسن أن يحول عينيه ، لولا أنه يتذكر ما كابده ليصبح عضو المجلس ، وآماله فى العضوية الأكبر ، وطموحه الذى لايحد ، فيظل ثابت النظر لدقيقة ، يتراجع بعدهـــا الى الخلف بظهره • كان منكفئا قليلا الى الأمام وهذا خطأ كبير • يضم طرفى الجاكت « وخلقنا الانسان فى كبد » يسمع المقرىء • يفكر أن يعلبه مع الأسماك ، فى مصنع التعليب الذى شرع فى بنائه جوار المزرعه السمكية • لماذا ؟ • من قبل قال « كل نفس ذائقة الموت » ولم يقل لماذا تسبق نفس نفسا ؟ • انه لاينسى • كاد ينهض قافزا برأسه فى صـــدر المقرىء تلك الليلة البعيدة • ظل يتسائل كارها ، وينكش بخيزرانته فى الأرض • نسى ذلك حقا ، وامحت تلك اليلة من الوجود ، لكن هذا الفؤاد الطويل الاحمق ، جاء فأحيا كل شىء • أجل ياحسن لاتخدع نفسك • لاأحد ممن حولك ، بما فيهم دومه ، كان يذكرك بشىء • لكن هذا الطويل التافه ذا الوجه المستطيل والفم القانت ، يجعل السرادق ينخلــع من حولك ، يحط مكانه السرادق القديم ، حتى لترى عـم سمسم ، الطويل الرفيع غائر العينين الضيقتين ، ذا الجلباب الأجرب ، الذى يمشى مطرقا يبحث عن قرش سقط سهوا من أحد ، رغم غناه الفاحش •

يحاول حسن أن يفر من تدافع الذكريات فيفشل • يريد هواء باردا ، فشمس صيف لعينه مختبئة فى سرواله ولايدرى ! •

ايها المقرىء التعس • أيها المجلس التعس • هذا عضوك مرتخ ، مستسلم لماض بشع يكبس على روحه ، بعد أن ظن

انه قبره فى قاع اشد ظلاما من قاع الترعه . لكن ما معنى اللوم الآن ؟

يتخذر مستسلما بعد أن كاد يصرخ متسائلا . يبذل قوة جبارة كى لاترتعش ساقاه فيفهم أحد شيئا . لماذا خذل وردة ؟ لو كان يعرف ما نوته ماخذلها . خائب خائب خائب رغم الكذب العظيم ! .

تقف فى بئر المعدية تقضم الحلوى وتبتسم ، وفوق وبين أسنانها البيضاء ذرات الدقيق الصفراء ، بينما تنظر اليه بعينيها المتسعتين بالمصارحة ، فيجذب السلك بقوة كأنه يهرب ، فيحاصره تعاقب الشاطئين ، والبئر الضيقة ومسافة الشبر بينهما ، فى الوقت الذى يحرق يديه السلك الرفيع المتوتر الممتد بين الشاطئين ، ووسط الحلقات المعدنية المثبته فى طرفى المعدية ، والذى اذا جذبه الى ناحية تهادت المعدية الى الأخرى ،فهولايدرى بأنه لم يمسك بقطعة القماش القديمه، التى يجب أن تكون تحت كفيه وفوق السلك ، بينمـــا هى تضحك ، فيتذكر كم داست قدماه فوق قدميها ، وأصابعه فوق أصابعها وهى تساعده فى ارخاء السلك أسفل الماء حين تعبر سفينة ، أو شده من جديد بعد العبور ، لينتفخ صدرها عاليا فوق علوه الذى يجذب صدور الرجال للانحناء وتضحك فيمتلىء الفضاء بالحمى ، وتكاد مياه المحمودية ترتفع مغرقة الشاطئين وتندى السماء بعرق ، فتهبط فيه الروح الى حسرة القاع المتخـــاذل ، اذ تكفيه آخر الليل بقرة عم ســــمسم أو حمارته ، اللتان عهد بهما اليه ، يرعاهما جوار عمله بالنهار،

وابتنى لهما كشكا على الشاطىء ، لينام فيه معهما وقت القيلوله ، أو أى وقت تسمح به له وردة ، كما ينام معهما ومع بقية البهائم بالليل فى الزريبة الكبيرة التى يمتلكها عمسمسم، الذى يقول دائما أنه ــ حصن ــ راع أمين للبهيم ، ولايعرف سر الألفه الابليسية بينه وبين البهائم ، كما لايعرف ذلك حتى الآن الا دومه اللعين الاحمق . يدرك حصن الحسد فى عيون الناس فيتحداهم بالموافقة الكاذبة ، قائلا انها ــ وردة ــ لاتعشق غيره . وتصعد الوردة الرائعه من البئرالى سطح المعدية ، فينحسر الجلباب عن الفخذ المتماسك ، له صوت النيران المشتعله ، وهو يلمح طريا حين تقفز الى الشاطىء الآخر لتحضر الحلوى فتهتز ردفاها بالدعوة الغجرية ذات الجرس الغامض ، فيهتز السلـك فى يده ، ويتوتر منتظرا عودتها ، متمنيا أن تموت ، سائلا عن البذرةالشيطانيهداخله، التى ضيقت عليه الدنيا فجعلتها ليلا مكحلا ، واست بقرة أو حمارة متدل ، بينما الشاطىء المفتوح امامه لايرقاه ،والمسافة ايماءة عين ، اذ ماأكثر ماطلبت منه أن يضع فى صدرها يده السوداء الناشفه التى صارت سمينه الآن ، حمراء وربما خضراء فهو ينظر اليها فيجدها كثيرة الالوان ! .

« أخرج بك نقودى » .

تقول وتضحك فيهتز الهواء ويضع يده تقـــابلها نار فترتد ، لكنه يتشجع ويخون نفسه ، فيمسك بحلمة ثديهـــا المتماسكة كحبة الفول ، فتجلجل ضحكتها طاردة الهواء الذى يتجمع مذعورا راقصا على وجهه ، فيحس بها وهى تدفـــع يده عنها تستبقيها ، ويرتعد ، فسيفشل .



هل ينسى ؟

يسبح فى بحار النشـــوة ثم يعبئه الخوف من جديد فيلوذ بشاطئه العجيب ، حتى يغيب دومة يوما عن العمل بالمساء ، وتكون ترعة المحمودية خالية من بقع الزيت ونبات الياسنت ، والجو مرطب ، فيعلم أن الليلة نهايته ، حين‌تضيق عليه فتحة البئر ليضيمها مبتهجا كالأبله ، فتستريـــح بين ذراعيه وتقبله فيسكر هابطا بها اسفل البئر يتمددان فوق الالواح الخشبية اللزجة الرطبة لقاع المعديـة ، ويرفـــع جلبابها ويرتعد فسيفشل • وكأنه ولى ، تزعق الحمـــارة فتصفعه وردة صفعة تولع صدغه بسعير النذاله ، اذ تندفع معها إلى وجهه بصقة مايزال يحسها • لايجب أن يرفع يده الى وجهه • هذا سرادق آخر وهو فيـه الورده ! • لكن الركلة فى احشائه بالركبة الطرية ، كانت تعجز عنها بغلة حرون ، فيقفز الى الشاطىء ، وتقفز خلفه حاملةسيخاحديديا بين يديها ، لايعرف من اين أتت به •

« ياكلب يابن الكلب » •

يخرج حسن منديله المعطر ، ثم يعيده متجاهلا العرق الذى يقفز على جبهته وصدغيه • مايزال يسمع صوتها وهو يجرى كالقطار القديم الأسود ، هو الذى يظلع فى مشيته • كم دفع للاطباء ليجدوا له علاجا لهذه الساق العـــاقة بلا فائدة ؟ يفكر أن يبنى مستشفى ويأتى بهم ليعملوا فيه فوقتها فقط سيعالجونه ، ويستبعد السفر الى الخارج ، فهو مايزال غير راسخ الأعمـــال • يؤجل المستشـــفى الى حين فوزه

بالعضوية الكبرى ، ثم يؤجله نهائيا ، فوقتها سيسافر مطمئنا على أعماله ٠

الحمارة تسرع فتبدو جارية بالعرض لأن سرعته التى هى أقل من سرعة الحمارة بدت أكبر ، وبدت الحمارة عائقا، فيقفز فى الترعة ، ويسمع الآن صوت الماء حين سقط فيه ٠ ماذا كان يحدث لو لم يقفز تلك الليله ؟ ماذا لو قتلته ؟ لقيط التقطه عم سمسم ، يمكن تشويه جثته والقاؤها فى ترعة المحمودية التى تحمل الجثث كل يوم ٠

لاينسى كيف اختفى أياما وعاد ليجدها تتحدث عن دومة ٠ يقول لنفسه ٠ أتراه مايزال غريمك وأنت تجهل ؟ ستمزقه الليله ٠ إلا تشعر أن السرادق صار صامتا ؟ انصرف بعض الناس وأتى آخرون ، وهاهم يقبلون عليك ليصافحوك بعد أن صافحوا ابن ٠٠٠ الميت ٠ انه ابن الميت حقا لكنك عضو المجلس الـ ٠٠٠ حى ٠ آه ٠ لماذا لم تقم وتنفذ بجلدك ٠ أتظن حقا أنها كانت تحبك ؟

ما يكاد ينهض حتى يقابله أربعة رجال بينما يقف الجالسون جميعا تقريبا ٠

ـ حسن بك والد الجميع لابد أن يتقبل العزاء مع ابن المرحوم ٠

يقول سليط من بين الرجال الأربعة ٠ يضيق الحذاء على قدمى حسن بشكل خانق ، ولا يستطيع التراجـــع ٠

يلاحظ دومة أن حسن صار يعرج بطريقة ملفتة للنظر • يدور رجل بالقهوة السادة ، يجلس حسن جوار فؤاد الذى يرتبك قليلاً ، ثم يفسح لحسن مكان الصدارة •

– انك الابن الوحيد •

يعتذر حسن بلباقة ، وان أحس ببعض الاضطراب • ينتظم المعزون ويبدأ المقرىء فى التلاوة • يلاحظ حسن أن دومة صار أكثر ابتهاجا فجأه • يقترب برأسه من حسن وهو يفكر هل يقول « عم حسن » باعتبار السن أو « أستاذ حسن » أم « حسن بك » • قبل أن يستقر ينطق •

– لعلك تذكرنى •

المفاجأة هائلة ، لكن حسن لايرد • يكتفى بأن يربت على ركبه فؤاد القريبة • مواساة ! ؟ • موافقة ! ؟ أم اشارة للكف عن الكلام ! ؟ • لايفهم فؤاد • يدرك أن الحيرة بانت على وجهه اذ يرى دومة ينظر اليه بابتسامة واسعة •

– أنت فؤاد ••••

يتكلم حسن •

– ذاكرتى قويه • لكنك ••

يصمت قليلاً •

– شبت قبل الاوان ••

هكذا كأنه يتكلم وحده ، وبتوقيع مقصود ، وان لم يفهم فؤاد الذى يقول •

– عشرون عاما تفعل الكثير •

لم يقصد فؤاد شيئا • قال جملته كتعليق لا معنى له • لكن حسن يرد بفخر واضح •

– صحيح •

ويربت على ركبة فؤاد مرة أخرى • يتحشرج الشيخ • يسعل أكثر من مرة • يعطس • يستغفر الله يشرب جرعة ماء • يعاود القراءة • دومة مايزال يركز عينيه على فؤاد مرة ، ثم على حسن أكثر من مرة • لايدرك فؤاد ، وربما لاأحد أيضا ، أن القلق والابتسامة سينتهيان بنافورة دم • بالضحكة الهستريه الصاخبة ، والفم المفتوح كجهنم • لحظة كانت أقصر من « الخضة » ! صرخ فيها دومة « يانذل يانجس » • وكانت السكين العريضة الصقيلة قد ارتفعت عاكسة أضواء المصابيح ، فأضاءت الليل أكثر وسرى برقها فكان له خيال ساطع ، رآه فؤاد يتحرك كالشهاب على جدران المنازل القريبة ، قبل أن يرى السكين •

انتهى الأمر ، وظل الخيال يتراقص مسرعا من كل الجهات أمام فؤاد الذى انسحب متسللا ، ناسيا كل شىء حتى ذهوله ! •

– لاتقتلوه •

– غطوا الرأس •

– لايتحرك احد قبل البوليس •

لكنه كان قد ابتعد قليلا ، فحث الخطىء كأرنب • فاجأه خمسة شبان • صار أمام الدكاكين الثلاثة القديمة ولايدرى • لقد خرجوا منها •

ــ قتل دومة حسن المعداوى .

هتف ، فصرخ أحدهم .

ــ حسن بك . ! ؟ .

وتركوه مسرعين الى السرادق . فكر على نحو مباغت أنه لم يرهم من قبل ، وأنهم لم يعرفوه . نظر دون أن يدرى فوجد الدكاكين الثلاثة خالية ، لكن النور فيها شديد لامع ، يمتد ليكشفه وسط الشارع . أسرع متجاوزا المكان متحرفا الى الترعة حيث مكان المعدية القديم .

كان بناء كبير مظلم اقيم حديثا يحجب مساحة كبيرة من الشارع عن موقع المعدية . وقف خلف البناء مقررا اذا لم يجد المعدية لايبرح مكانه حتى ينتهى الموقف كله وينصرف الجميع ، ولو ظل واقفا حتى الصباح ! . كان خائفا بحق كأنه القاتل أو الدافع عليه . أى عبث ينتظم الاشياء ؟ كل ذلك لأنه ارسل خطابا . لأنه اراد أن يصل ودا منسيا . لكنه امسك نفسه متلبسا بالابتسام . فصل دومة الرأس عن الجسد

« اضعف خلقه صار أعظمهم ! »

« أعظم خلقه صار أضعفهم ! »

« أضعفهم قتل أعظمهم !! »

نكتة بالتأكيد ! . ربما استعبد حسن دومة كثيرا . من بين الأتباع كان دومة أضعفهم بنية ، وأشحبهم وجها . بدا وهو يبتسم حطام انسان . لكن الابتسامة كانت خدعة . خرجت السكين من سرواله ، طويلة عريضة تحصد أعمدة

النور . لابد اختار التوقيت من قبل . تجلى المقرىء على نحو مباغت . تابعه المعزون بانجذاب غامر . ارتفعت أصواتهم طربة . الله يفتح عليك . وترحموا على المرحوم . لم يكف دومة عن الابتسام . نظر كثيرا الى الأرض . ربما تردد . القتل ليس حاجة يقضيها الانسان كل يوم ...

لم يشأ فؤاد أن يسترسل فى الاسترجاع . تباعدت أصوات الهرج الأخير ، وتداخل فيها الصوت الرقيق لتموجات الماء وهسيس الحشائش يعلن عن استجابة طرية لنسمة رطبة . نظر الى الشاطىء الآخر فوجدها . المعدية . مستريحة خلفها الترام مضيئة على الطريق المحاذى لترعة المحمودية من الجهة الاخرى كما كان يراها فى الزمن القديم . الظلام حول الترام دثار واسع . الترام المضيئة خفقة قلب حزين . يريد أن تأتى المعدية بأسرع ما يمكن . لايبدو أن أحدا بها . كانت وردة هى التى تسهر . كانت تحب ليل الشتاء والصيف . ليس هناك من صفير هادىء ولايديبيضاء . خالية المعدية فيما يبدو منسية ، وسيقف حتى الصباح . هل يترك مكانه ويسير حتى الكوبرى ؟ سيرونه . يسمع صوت سيارة مسرعة فينكمش . أتباع حسن بالتأكيد يسرعون لاستدعاء البوليس . يتراجع مستندا على جدار المبنى الرطب الخشن . صدره ينتفض . المشهد يعود يكبس على روحه . لابد أن ثيابه تلوثت بالدم . لقد جذب دومة حسن الى الأمام مسافة كبيرة فى لمحة ، وصرخ مطيرا الراس ، فقفز هو ــ فؤاد ــ بعيدا مرعوبا ، لادم اذن اكتشف أنه يفكر كما لو كان مجرما بحق . رفض الفكرة بعزم . تطلع الى المعدية

آملا فوجدها تتحرك . لم يستطع أن يميز بها أحدا ... ليلة عجيبة . هل تسير المعدية وحدها ؟ هل خرج من المذبحة وليا يتحرك له الجماد ؟ . أم هى الألفة القديمة تحرك الحجر ؟ لعله عمى . لكنه يرى الترام . لابد أن بالمعدية أحدا . ربما شخص قصير يختفى معظم جسمه فى بئرها . اقتربت المعدية أكثر فتنفس . ها هو قد اقترب من الفرار ، وها هو يرى شخصا كشبح .

ـ مساء الخير .

وصلت المعدية تحمل صوتا خشنا .

ـ مساء النور .

خرجت ولم يسمعها . لا هو ولا ذو الصوت الخشن . قفز فاهتزت المعدية تحت قدميه . نفس الاهتزاز القديم . هذه المرة أكثر . فكر وهو يبتعد داخلها قليلا . عليه أن يتماسك . لايجب أن ينظر الى الواقف فى بئر المعدية . سيكون بشعا . ربما يجده حسن المعداوى نفسه أو دومة . هذه ليلة فوق حدود العقل . لقد تحدثت الصحف أمس عن قاتل عاد الى منزله فوجد « القتيل » يتناول العشاء مع زوجته ، فاصيب بالجنون .

ـ الاستاذ من هنا ؟

داهمه الرجل الذى بدا يتلكأ . السؤال العادى الذى ربما ساله الرجل دون عناية سبب لفؤاد رعبا . اللعنة على عمل الليل . لابد أن الرجـــل يريد أن ينام . ماذا يقول ؟ غريب ؟ كيف ؟ من هنا ؟ كيف ؟ . نظر مضطرا الى الرجل

فوجده أسود الوجه له كفان مفروشتان فوق السلك كان لكل منهما عشر أصابع .

ـ غريب .

قال باقتضاب وبلهجة تشى بقطع الحديث . جذب الرجل السلك فأخذت المعدية طريقها الى الشاطىء الآخر . لكـن الرجل تثائب وهو يجذب السلك ببطء شديد كأنه سينام فوقه ، وتحدث لا مباليا .

ـ انهم يطفئون الانوار .

ارتعد فؤاد بحق لكنه سمع خشـــخشة صادرة من بئر المعدية فتجمد مدركا أنه لو وجد ضوء قريب من وجهه ، لبدا مسرح الوان . ركز انتباهه على الخشخشة للحظة لم تطل .

ـ لا مؤاخذة هات قرش أو سيجارة .

قال الرجل فســـمع فؤاد « خذ قرش ياروح أمك » صادرة من بئر المعدية . نسى الرجل تماما . صعدت نار الى وجهه . انسكبت أنهار قديمة فى روحه . تداعت السدود هذه الليلة المشؤمة . لابد أن الصحف صارت تأتى بأخبار حقيقية . لكنه سمع الكروان القديم يصدح فى الظلام فابتهج . هل لاتزال الترعة تتسع بالنشوة ؟ هل مايزال فى زماننا هذا وقت يصبح فيه العالم أضيق من الفرح ؟ أحس بدموعهستقفز الى ماء الترعة التى بدأ يعلوها فجاة بخر أبيض . اهتزت المعدية وظهر من بئرها جوار الرجل غطاء رأس أبيض فوجه أبيض مستدير ضـــاحك فى زهو صـــاخب بدعوة العينين

اللامعتين . انه الوجه الصغير المجنون يهدهد ليالى الشتاء . وها هو الصدر القوى ينتصب مع الجسد الرائع الذى لاتقهره ظلمة ولاثياب . انها ترفع وجهها اليه .

ـ لاسجائر من الزبائن . نقود فقط .

لم يخرج نقودا . وقفت عيناه أمام وجهه يراهما ويرى بهما ولايصدق . استمر الرجل يجذب السلك كسولا ، والمعدية تتهادى متعبة . لم تمض سنوات عشرون . هذه وردة وهو مايزال صبيا . لم يحاول حسن قتل دومة . لم يقتل دومة حسن . مامضى محض خيال . لو عاد الآن سيجد أمه وأباه . لم تمت أمه بعد موت وردة بأيام . لم يشعر بذنب لمخالفته قولها وقول أبيه عن الفأل السىء بحضور الصغار الى المآتم . لم يدفن أبوه اليوم . لكن ... لايجب أن يجن . لايمكن أن ينتهى خطاب بالجنون . مايمضى يروح ، والصحف كاذبة تنشر العفاريت . أراد أن يتكلم فلم يستطع .

ـ إنتظر لحظة . انى أتذكرك . انت .. انت ... كنت تسكن هنا .

أفاق من أفكاره مكتظا بالأسى . ود لو كان مامضى لعبة حقا . الا تلعب الآلهة ؟ ولم يرد . لماذا يكون الصدق بشعا فى بعض الاحيان ؟

ـ كنت اراك بالنهار ، واحيانا بالليل . كنت تعبر بدون أجرة .

كان يدفع خمسة قروش كل شهر ويشعر بالزهو وهو لا يدفع كل يوم مع العابرين .

ـ أنت فله اذن ! .

هل يمكن أن ينسى أحد قتلا كالذى رآه منذ لحظات ؟ أدرك فؤاد أنه لم يعرف نفسه بعد . لم ترد . ظلت تنظر اليه واسعة العينين . كان السرادق القديم حقيقيا ، وسرادق الليلة . طالت نظرتها اليه ، كما طالت نظرته منذ قليل الى دومة غريب الاطوار ، المطرق كثيرا الى الأرض . والذى لم يفهم فؤاد السر الحقيقى وراء اطراقه وابتسامته . ولم يعرف كيف حاول دومة طوال الوقت أن يمنع نفسه عن اتمام القتل فى لحظة لايريدها ، وأنه فكر كثيرا فى قتل حسن فى الطريق ، ولكن أراد قتله وسط اكبر حشد من الناس . فكر أن ينتظر بدء انتخابات مجلس الشعب ، ليقتله وسط اكبر اجتماع فى الدائرة ، ولم يعرف متى ستتم الانتخابات . من قبل لم تراوده فكرة القتل هذه . لم يفهم كيف استطاع حسن ، بعد أعوام قليلة من خروجه من السجن ، أن يحقق هذه السطوة . لكن فى الحقيقة لم يتردد أن يكون واحداً من اتباعه حين ضاقت به السبل . كره المعدية بعد وردة . بعد شفائه من محاولة حسن لقتله عمل حمالا فى « محطة مصر » لاكثر من عشرة أعوام . ماكاد يشفى من الانزلاق الغضروفى اللعين ، الذى اصابه فى ظهره ، حتى مات أبوه . ولسبب لا يدركه ، استبعد أن يكون غضبا الهيا ، هو سبب عجز امه عن الحركة فى أحد الصباحات ، ولأن قدم أخيه الأصغر مباشرة ليست « فلات » مثل قدمه هو ، مات أخوه على الحدود

الغربية فى الحرب المنسية مع ليبيا ! .. ادخلته القدم الجيش على عكس قدم دومة التى عافته منه . تفرج دومة على التطور الذى يلحق بحسن كل يوم ولم يحقد . ذهب اليه فى المكتب المقام جوار مزرعة الاسماك التى يتحدث عنها الناس . ربت حسن على ظهره .

« ستعمل فى مزرعة البهائم لتكون قريبا منى » .
كان طيبا بحق .
ويمكن أن تسعد امك » .

واعطى دومة مائة جنية تتكرر كل شهر . تعلم دومة من العدد القليل من الفلاحين كيف يعنى بالبهائم . ولأن حسن يحبه كما قال ، اعفاه من هذا العمل ، وخصه بتوزيع الألبان على محلات المدينة . اعطاه عربيه نصف نقل ، صار دومة يرمح بها فى الشوارع ، ويرى كيف ازدادت اعداد النساء . وبالليل بعد أن يغطى أمه لا ينقطع عن التفكير فى وردة . لا يعرف أحد حتى الآن أى عذاب يمكن أن يقاسيه انسان يحب ميتا . وأمس فقط قرر دومة أن يقتل حسن اليوم وكان يتحين اللحظة المناسبة التى قبل ان يرمش فيها أحد ، يكون هو قد أطار الرأس ..

كانت ابتسامته الأولى حين عرف فؤاد ، لأنه تساءل كيف ينسى منقذه عشرين عاما ، ويبكى قاتلته ! .وكانت ابتسامته التالية لأن فؤاد لن ينقذ حسن هذه المرة .

وكأنما كان كل شىء مرتبا بفعل قوة كَوْنية . فنسيم هذه الليلة ، متفرد كنسيم الليلة القديمة . رأى دومة نفسه وسط السرادق القديم . حسن ينكش الأرض بخيزرانته ، ودومة يكاد ينهض قافزا فى بطن عم سمسم . ينصـــرف ويأخذ الطريق الخطأ . يتنسم الهواء متسلل الانتعاش « كان عليك أن تعبر الكوبرى » يقول لنفسه . المعدية بالليل تربط الى الضفة الاخرى . لكن من اين القوة على الادراك . يبكى الذى اقتلع من الأرض . لم يبق له الا أسى ظلوم . حافى القدمين يمشى يشعر بوخزات الحصى ، وهو الذى داست قدماه على النار . لن يرى بسمة الدنيا بعد . والليلة فى هذا السرادق المقام لأبى فؤاد ،يدرك أنه لم ير هذه البسمة حقا طوال عشرين عاما فيبتسم . لن يرى قطعة الحلوى فى الفم الذى لا يكف عن الابتهاج ، ولا النهد المشرئب الى خطايا الكون ، ولا ـ آه ـ صفاء القلوب !. بئس الرجال ياعم سمسم . ياغنى ياصاحب المعديات والزرائب والبيوت . قالت أنها رفضت الزواج . قالوا وافقت وانتحرت مشـعلة فى جسدها النار . يارحمة الله كيف لا يفهمون ؟ من قال أن وردة خلقت ليتزوجها غير دومة ؟ من قال ان النـــار يشعلها الماء ؟ من خلط الأشياء ؟ هذا الفقر اللعين . يضحك ويحاول ان يفر من دغدغاتها . وفؤاد الآن لا يفهم أن أكثر ابتساماته قديمة الاثارة . يكاد يرقص وهى تعضه . لولا السرادق لفعل .

« احبك » .
قالت ....
« كلام سينما » .

قال ....

« ادخل فى صدرى ياولدى المجرم » .

تقهقه ويدخل . ينزل بئر المعدية ليغرق .

« انظرى . بخر الماء أبيض والليل أسود والبئر أسود فلنبعد عن كل لون ! » .

تقهقه وهو لا يفهم ماذا يقول .

« الولد الصايع شاعر » .

تقول وتضحك فتضيىء البئر ويشرب ، وكلما ازداد عطش ، فعاود وقوة الشياطين تدب فيه ، فيقفز فى ماء الترعة وتقفز يعلمها وسط الليل السباحة ! .

« نتطهر بماء وسخ » .

ويضحك وتقهقه ويعجبه حملها ممتدة الجسد يكاد يغطس فى الماء ، فتكون خفيفة ، فيرفعها اعلى الماء فتصير ثقيله ، ويتركها فتسقط أسفل الماء ، وتجده جالسا فى القاع المظلم ، فيصعد ويرفعها فوق كتفيه جالسة محيطة بساقيها ترقوتيه وعنقه ، ويسبح كالفرس ويغطس ، لتظل فوق الماء ، فيصعد من خلفها ، ويمرحان كأن الدنيا خلت الا منهما ، وبخر الماء الابيض يرتفع يغطيهما ، ويمسكه بيده فيفلت من بين أصابعه وتتنفسه بفمها ، وتخرجه فلا يخرج ، ويقول « حلم حياتى أن أشعل لك تحت الماء شعلة » . ويخرجان فيرتدى ثيابها ، وترتدى ثيابه ، ويضحكان وهى تضع يدها من تحت جلبابه تعبث بفخذه ، وهو يفك أزرار بنطلونها ، ثم يتبادلان الثياب ، ولا تنتهى الليلة فهو يعرف أنها لم تنم مثله ، بل ظلت تحملق الى سقف حجرتها ، وتتمنى لو صار

ماء نهر فيه تسبح . وفى الصباح يتشاجر . كل يوم يتشاجر مع خمسة أو اربعة أو أكثر من الرجال الجالسين فى دكانتى جادو وبرعى ، فتطير المقاعد من الدكانتين الى الدكانتين ، ووسط الطريق ، ومن رأس الى رأس ، ويهوى الرجال جميعا على الأرض يزحفون مبتعدين فيخلع ثيابه ، ويرقص عاريا . ويقول الناس « جن دومة ولا قبل لأحد باخراج الجن الذى تلبسه ! » .

لكن النسيم بارد ، ودومة يشعر بالشيخوخة فى هذه الليلة التى سيقف عندها الزمان عشرين عاما فيما بعد . يصل الى النقطة المقابلة للمعدية ، فيخلع ثيابه نازلا الماء ببطء ، فترعشه البرودة الغريبة على مياه الترعة الدافئة الثقيلة ، ويسبح بيد واحدة حاملا ثيابه باليد الأخرى . فى منتصف الترعة يتوقف .

لماذا تخلو الترعة من الجنيات ؟ يتحدث الناس كثيرا عن جنيات البحر ولا يراها ! .

لماذا تخلو الترعة من الحيتان ؟

لماذا لا يعلوها الا بقع زيت ونبات الياسنت ؟

لو يغرق ...

يفرح بالاكتشاف . أرواح العشاق تابى الا أن تلحق ببعضها . أرواح العشاق تعرف كيف تفرح فى الموت . المنتحرون يذهبون الى جهنم ! . لن يخاف . « عذابى فى الدنيا ايها الغنم . عذابى وانا بعد طفل رغم كونى رجلا »

أمه قالت ذلك وأبوه · أمه طيبة وأبوه طيب ، وهو غريب فى أسرته ! · لكن ليس لكل الأولاد اب مثل ابيه يبيع « غـزل البنات » للاطفال ويقتصد ليعلم ابنه · لا يعرف المسكين أن الفشل لافتة معلقة على قفا الولد ! · ضابط البوليس العجوز قال ذلك يوما وهو ينظر فى عينى دومة نظرة طويلة ، ثم أمر المخبرين بضربه ضربا مبرحا · انه أيضا طيب ! ·

يترك نفسه يهوى فى قرار الماء الثقيل · تلمس قدماه طين القاع اللزج · تغوصان فيه · ضاعت ثيابه من يده ولم يدر · ينكفىء فوق الطين على بطنه · يضع فيه رأسه · يشمه فيشم العطن · تنفر روحه بقوة خرافية · يرتفع قهرا الى السطح ملطخا بالوسخ · يمسح جسده ويسعل ويتنفس بسرعة · يقرر الهبوط مرة واحدة بقوة الى الابد · يتشبث فى الطين بكفيه · قوة جهولة لا يعرفها توقظ روحه ، وتجعل الطين ينزلق من بين أصابعه ، دافعة به الى أعلى من جديد · يشهق · يسعل · يزفر الطين من فمه · تهدأ نفسه قليلا ويقرر من جديد · يستجدى الله ان يموت · أن يعطيه الفرصة فى الموت · « تأخذنا حين تريد وتكره أن ناتى اليك لماذا ؟ لا يصدق أن الله يكره ذلك حقا ! ·

فى هدوء وتصميم هائلين يهبط ببطء هذه المـــرة يغمض عينيه دخولا اراديا فى الظلام الابدى · يضم ساقيه الى بعضهما فاردا ذراعيه الى الامام ، ويضغط بجسده عليه الأوحـــال علها تتمسك به · يجد طردا الى أعلى ، فيـ[illegible] ذراعيه دافنا وجهه فى الطين أكثر ، ومقاوما الطرد اللعين

القوة الحمقاء تعود فتطرده الى أعلى فيجد نفسه فاتحا فمه ، باصقا الطين رغم ارادته · يلطم خديه ، ويشد شعر راسه · يبكى بصوت يسع الليل · كيف اذن يغرق الناس ؟ تنهدالقوة ويكف لاهثا · يحس بتيار راحة ، وسعادة تغمره مفاجئة فيتنشى · انه يتفرج على شخص آخر · يفكر ويمسح الطين عن وجهه ، ويدمع الذى ظن الناس أن دموعه من حجر ! · ينزل القمر يقف فوق سطح الماء بعيدا ويبتسم بوجه عريض · ينفلق الماء له وهو يضربه بذراعيه سباحة الى القمر الذى يبتعد الى الوراء · يسرع ويسرع القمر فى الابتعاد · يقف عاجزا · يحس بنور طاغ من الخلف فيلتفت مدركا أنه القمر· يضرب الماء بيديه وساقيه لكن يبتعد القمر ثم يختفى ··

وسط كون شديد الظلام يتوقف دومة الذى نصفه فى الماء وحيدا يائسا · لكن القمر يعود يطل من الشاطىء ومن نبات الياسنت الماكر الذى يعشش على الجانبين متخاذلا ، ثم يطل من الشاطىء الآخر · تتهدل ذراعا دومة وتتباطأ ساقاه « ترفضيننى حية وميتة ياوردة ؟ ! » تملأ ابتسامة القمر الفضاء حوله ·

« لن اتزوج من احد » ·

« ساخطفك » ·

« لن اصبح وردة » ·

« أريد التحدث مع أبيك لكن صغر سنى وفقرى » · تضحك معربدة ·

« أنت صغير وفقير ، من قال ذلك ؟ » ·

« اذن نهرب »

« الى الماء ؟ »

وتدفعه فيسقط لكنه ينجح فى مسك ذراعها فتسقط خلفه ، ويدخلان فى طقسهما الليلى عاريين . « لقد بلغ جنوننا أن فكرنا فى الجلوس فوق المعــدية عاريين حتى يكشفنا الصباح للمارة والعابرين ، واتفقنا أن نفعل هذا الليلة وتتركينني . أين اذهب الآن ؟ »

يسبح المسافة الصغيرة الى الشاطىء مقررا هدم الكشك وتكويمه فوق المعدية ليقطع رحلة الى الجنوب والى الجنوب والى الجنوب حتى ينتهى النيل الذى تخرج منه هذه الترعة اللعينة ، أو تقتله الجنادل والشلالات كما يذكر من المعلومات القليلة التى عرفها فى المدارس التى لا ينجح فيها أحد !

« ماذا تفعل ؟ » .

انه حسن الذى كان قد نام خلفه . هاهو أمامك ولن يقوم اليوم !! . ودون أن يتكلم يهاجمه حسن . يصوب دومة لكمة قوية يختل على أثرها توازن حسن فيسقط ويقوم بسرعة قافزا فى بطن دومة برأسه ليسقط فى الماء من جديد . لكنه كان قد أمسك بحسن ليسقط معه . يغوصان . يطفوان . يشتبكان وحدهما وسط ليل لا مبال . الأظافر فى العنقين . قوة دومة هائلة : قوة حسن ظهــرت جبارة فجأة : هذا الأجرب الناشف به عرق الصبا وشرب من لبن الحمير ! .

يطول الضغط على العنقين فيبدو أن لانهاية للموقف .

« أى » .

تخرج مكتومه لم يسمعها دومـه نينها ويســـمعها الليله ! .

« آى .... » .

يترك دومة عنق حســـن ويصوب باليدين ضربة الى وجهه لها صوت يضىء الليل لكن ...

« آى .. آى .. آ .. ى .. ثلاث مرات متتابعة مقيتة آخرها طويلة مشروخة ممتدة واسعة ينزلق خلالها دومة وتتراخى ذراعاه ناظرا الى حسن الذى يسبح هاربا ، والخنجر فى يده . يتشبث دومة باللاشىء وهو يهوى تحت الماء .

لم ير أحد أسماكا بيضاء تتجمع تحت الماء كما رأى دومة . ولا حوتا فى ترعة قذرة صغيرة ، ولا أرواح القتلى الذين حملتهم هذه الترعه منذ حفرت ومنذ تعود الناس على القاء جثث البنات المقهورات من الصعيد والقرى الشمالية !.

لقد دفعوا جميعا بدومة الى أعلى ، وجعلوا من تحت قدميه أرضا صلبة ، فصار يسبح كأنه يمشى . لكنه يدور فى دائرة ضيقة ، محموما يبحث عن شىء لايراه ، شاعرا بالسائل اللزج الثقيل يخرج من أكثر من مكان فى جسمه . يضع يده على بطنه فيمسك بأحشائه . فجأة يسبح كالحصان خلف حسن . يعيد أحشاءه داخله بيد ، ويسبح بالأخرى . لكن حسن كان أسرع .



قبل ان تتركه الأسماك والحيتان والأرواح وتعود الى جحورها ، يدرك دومة أنه سيموت لامحاله ٠ ستترسله سكين حسن الى وردة ٠ يرفض الذى قرر الانتحار منذ قليل وعجز عنه ٠ يسبح الى الشاطىء القريب الذى أتى منه ناظرا الى شبح حسن الهارب بحقد ومرارة ٠ يحاصره القمر عائدا من كل جهه فينكشف له الدم يغطى بطنه وساقيه ، بعد أن تمدد فوق طين الشاطىء الجاف الذى تخرجه الكراكات من قاع الترعة كل عام ٠

يقرر دومة أن يعيش حتى ينجح فى الذهاب الى وردة بارادته ٠ ماذا يقول لها لو أرسله أحد غصبا ؟ ٠ لو أرسلت هى أليه فقط سيذهب طائعا ٠ يريدها أن تعرف كم يحبها ٠ يقرر أن يصرخ مستغيثا ولو من اظافرها ٠ وها هو ينجح فيسمعه فؤاد الذى عاد الليلة بشعر أبيض ٠

ينظر دومة الى فؤاد مثقلا بجرح وافر الدم ، لكنه يريد أن يحدثه ٠ هذا الشاب لم يعن شيئا له ٠ لا وهو صبى ولا حين غاب ٠ لكنه وقد عاد فعلى دومة ان لاينسى أنه ـ فؤاد ـ أنقذه يوما من موت رخيص ٠ كم يود دومة الآن أن يعرف فؤاد كيف انقضت العشرون عاما ٠٠٠

انتقل المعداوى حسن الى حسن بك ٠ وسأقتله أمامك ٠ لقد استجمعت قوة دومة المنسية قرضها كل ليلة شـوق وحزن الى نار البراءة ! ٠ لن ينقذ حسـن أحد ولن يتألم حسن ! ٠ ستمر السكين بين عنقه أسرع من بصقة الاسياد!!

بعد عشرين سنة سأسافر الى عيني وردة هاربا من كوابيس حسن وأيامه • اما فلة فقد ادركت أنها ليست ضـــالتي • جميلة مثل اختها حقا • هل تذكرها ؟ كانت تمشي خلفها • علمتها وردة كيف تضحك الشمس ويبتسم القمر • لكنها لن تكفيني عنها • حتى أمس فقط كنت بالاستســلام أريد ان أواصل مقطعته الحماقه • اجل • حماقة عم سيسم الذي اجبر ابنته على زواج فاتر • حماقة وردة التي تركت الجميع واحرقت نفسها بدلاً من أن تحرقهم • حماقة حسن الذي أراد قتلي خوفا أن تختفي المدية فيتسول ، ولم يتسول بعد سجنه ، بل قفز كالثعلب الى موائد لاندركها • فكرت أن في الدنيا نظاما حقا • انه قد ترتب لي أن أحيا بعد وردة عاشقا • قررت أن تكون فلة رائحة أرى بها وردتي المقتولة • لكني اليوم اصبحت مقررا الخروج على الاستسلام والحماقة وكل ترتيب جرت به الأرض أو السماء • ساركب حسن الليلة • ليس لما أعرفه عنه • فهو يعاملني بكرم • كونه لصا سرق فلوس شركة الغزل التي اعطوها له ليوزعها على العمـــال الذين خرجوا يوم استقبال نيكسون رئيس امريكا ثم اختفى فهذا ليس شاني • لماذا لم يقبضـــوا عليه ؟ أنا أيضـــا كثيرا ما سرقت قطنا من السفن قديما ، وكثيرا ماسرقت الواحا من الكسب • أن يظهر بعد ذلك حاملا تصريحا من المحافظة ببناء كشك يبيع فيه ويشتري ، ثم يمتلك بعد عام سيارة نقل بمقطورة تصبح اسطولا ، فهذا ليس من شاني • ليس شاني • ليس ••• الله يوزع الأرزاق وان تهاون في توزيعها في بعض الأعوام ! • انني اصلي منذ عام ! • وأنا أعمل عنده مثل الناس جميعا • لقد هتفوا له قبل الانتخابات

وهتفت أكثر ، وأوسعت له الطريق بين الزحام ، وبح صوتى · أن اصبح سرد الوحيد فهذا لا يضايقنى · أحضر اليه كل ليلة البقرة طائعا ، وأجلس ضاحكا خلف باب الحجرة الواسعة أسمع بحات صوته وتلاحق أنفاسه واستعطافه وخوار البقرة الهادىء الذي ما يلبث أن يقوى ثم يعود يهدأ ، وأعيد تسوية فرش الحجرة بعد أن تهدم البقرة كل شىء ·· كونه سيبنى مصيفا لتقليب الأسماك لتعمل فيه بنات الحى ، فقط ليجرب امرأة قبل أن يموت كما قال وابتسم ، فهذا شأنه · ربمـا يجد فتاة تنجح فى أن تخور كالبقرة ، فيكون ثورا بحق ! ، بدلا من أن يقتل بائعة/لبن مسكينة رفضت أن تخور ويلقى بجثتها الى أسماك المزرعه مرة أخرى · أجل · لقد حدثنى أحد الفلاحين العاملين فى حظيرة البهائم بذلك ذات ليلة ، وسافر رعبا لأن الهواء يحمل الكلام الى حسن بك كما قال وهو يغطي وجهه بعباءته ويمرق مع بزوغ الفجر · لكنى لا أنسى نظرة عينيه حين سألنى الا أتزوج ؟ فقلت « فلة » · كيف ترك الحجرة غاضبا وصفع أول عامل قابله من عمال المزرعة السمكية · ولما وصل الى الهاويس الذى يصلهـا بالبحيرة فتحه فتسـربت الاسـماك كلها الي البحيرة من الأحواض · لقد جلس فوق بوابة الهاويس يضحك بشراسة · صرح · نار · طلب زجاجة ويسكى فأحضـرتها اليه أنا الذى كنت أسير خلفه · شرب كأنها ماء وألقى الزجاجة فى البحيرة بقوة مجنونة فأفزع الخفافيش وسط الهيش ·

« فلة · فـلة · فـلة يا دومة » قال معـربدا ·

« أما زلت تذكر وردة ·· [illegible]ـرين سـنة · لعنـة

الله عليك ·· فـلة التى فى عمـر ابنتـك ·· قسـه تقول ريحانة أيضا فأنت جسور ! · لعنة الله على سمسم فقد كان مولعا بأسماء الزهور ويبول فى ثيابه » ولم أقل له أنه ليس ذنبى نمو جسمى مبكرا · فعمرى لم يتجاوز السادسة والثلاثين · جعلونى رجلا وأنا بعد طفل · جعلونى هرما وأنا فى زهوة الشباب · لم أقل أن فلة تتجاوز العشرين · أن هناك رجالا يسبقون زوجاتهم فى العمر بعشرين عاما وأكثر · هؤلاء السعوديون الذين يأتى بهم ليتزوجوا من بنات الحى ويزورون عمر البنات ليكون الفارق قليلا كما يقضى القانون وهو يزيد عن العشرين ! · عدت لأبكى ولم أنظف الحجرة · لم أشعر الا به وقد عاد · كان الوقت يقترب من الفجر · ظننته يريد البقرة التى نسيها تلك الليلة · قررت الا أفعل · ما أدرى به الا وهو يغلق الباب بالمفتاح من الداخل ويصفعنى مرة ومرة ومرات بيديه السعينتين اللتين كانتا يوما مثل يدى الغراب · تكومت كفار لأول مرة فى حياتى · واذا به يخلع ثيابه · يمزقها · ومن خلف الدولاب تناول عصا سميكة ·

« سأفتح رأسك اذا لم تخلع ثيابك · لابد أن تمضى عمرك واقفا » ·

لم أفهم وهو يدور مجنونا حولى ويضـرب بقسـوه ووحشية · أرادنى أن أسقط على الأرض وحدث · سـمعت صفير العصا كالريح طائرة نحوى مرة بعد مرة ومرات غرس العصا فى فنفرت مجنونا · كنت كالميت لكنى نفـرت بقوة جبارة ووقفت وهو يزعق « ثلاث مائة مرة يا ملعون ·

ساجعله تشخب دما مثل قمع » ولم افهم : لكنى هربت · اندفعت مصطدما بالباب فسقط امامى وقفزت فوقه · من الجحيم هربت وظللت اجرى حتى البحيرة حيث ألقيت بنفسى كانت ضحكاته البشعة تلاحقنى فظننته خلفى ·

«كان أراد قتلى ولم امت ·
ماذا بيننا من عداوة لا افهمها »

كان لقيطا لايعرف له احد ابا · وكان ابى يبيع « غـزل البنات » فهل كان بين الأبوين ثار ؟ هذا البشع الأجـرب سأقتله · لارغبه عندى فى قتلة أو غير قتلة · لن أرى وردة الا ملوثا بدمه · وسأظل ابتسم وستظل تنظر الى مستغربا حتى تعرف · مهلا · انى اشعر بك تريد الفرار من السرادق · لقد كان الميت اباك بحق · هل نسيت ؟

وكأنما يقرأ دومة ما يدور فى ذهن فؤاد · الذى نسى السرادق وأباه · لم يعد يسمع صوت المقرىء · سيطر عليه شعور غريب بانه لايجلس فوق مقعد · بل خازوق حشـر فيه ولا فكاك منه · وابتسامة دومة المتكررة لم تعد تثيره · تذكر انه نفسه يضحك وهو يمشى فى الجنازات · لقد مشى فى شهر واحد خلف عشر جنازات تخص أقارب أو أهل بعض زملائه فى العمل · فى كل منها كان يضحك · حتى انه فى احداها احس بالخجل من نفسه ، واكثر من شـخص ينظر اليه مندهشا ، فتراجع عن صفوف الرجال حتى اقترب من النساء اللاتى كن ينحن ويبكين ويولولن ، ليعطى لنفسه فرصة المشاركة الوجدانية ، لعل الحزن يصعد الى وجهه ·

الشـــعور الغـريب الذى يلازمه منذ ســـنوات بالعدم ، وبتفاهة ما حوله ، بل وكل ما يفكر فيه الناس، هو المسئول عن ذلك بالتأكيد · لكنه قرر مرة أن يكون جادا فى فهم نفسه فقالت له « روق » ·

«هذه مسأله يجب ان تكف عنها » ·
« كيف ؟ » ·
« لا اعرف · انها تضحك » ·
ضحك ·
« لقد أخذت الأمر جادا » ·
ابتسمت ·
« انت السبب ·· لماذا تصحبنى عن الموتى ؟ »
حقا لماذا يفعل ذلك · تساءل ولم يجد جوابا مفهوما
لم يحدث ان تحدث عاشقان فى ذلك ·
وفاجأته ·
« آن الاوان ان نحدد موقفنا » ·

نظر الى مياه النيل الساكنة الثقيلة · ادرك بحاسة الخوف التى اكتسبها طوال علاقته بها أنه لامهرب اليوم · كثيرا ما تساءل لما ذا يمضى فى علاقة لايستطيع ان يضع لها نهاية سعيدة ، لكنه كان أيضا يتســـاءل ، لما ذا تفعل مثله ، فيتشجع على الاستمرار · اراد أن يعبث هروبا فقال :

« أنت تشبهين فتاة أحرقت الشباب والرجال واشعلت فى نفسها النار فى الاسكندرية » ·

لكنها لم تهتم . وها هو قد جاء عبثا ليرى الرجلين اللذين تقاتلا يوما بسبب الفتـــاة . كثيرا مافكر أن النيل الواســـع له لون الترعة الصغيرة التى تخرج منه . لعله يخرج منها !

قال مدرس الجغرافيا قديما انه فى الاسكندرية تصبح الدلتا جنوبا ، وفى القاهرة شمالا ! .

لكن الترعة شهدت ليالى سهر : كانوا يشعلون النار وينظرون الى القمر ويفرحون اذا سقط نجم بذيل . ينصرف أصحابه فيتسلل راجعا ليسمع الصفير الهادىء السارى فى الليل قادما من المعدية . لعل دومة كان يعرف . هذا هو السر المقبول لابتسامته الغريبه .

« وردة هذه لن تنتهى الا واقفة على انهار نم » .

يقول الجالسون من عمال شركة الملح والصودا ووردة كعادتها وربما للمرة الألف تفتح فاترينة الحلوى .

« هل رأيتم قمرا فى يده قمر ؟ » .

يصيحون ووردة تبتسم . يبتسمون ووردة تقهقه . يتوقف الطعام فى حلوقهم . تعطى فؤاد يد القمر الصغير !

« امسك يا بلبل » .

يملأه زهو . تأخذ الحلوى وتسحب اختها من يدها . تنصرف متأودة مشعلة نارا فى الهواء غير نار الأمس ! .

تقرص فؤاد فى ذراعه . انه لاينسى . لابد أن دومة رآه أكثر من مره ..... لابد ...

الطفلة ايضا تمشى متـــأودة

« نفس العينين ! »

« والوجه » .

« والشعر » .

« واللعب ! » .

يضحكون ...

« الخالق واحد » .

« ومجهول » .

يضحكون اكثر .

« هذا شجر للحسن والجمال » .

« والموت لو تدرى » .

« الرحمة للعباد » .

يسمع ويشتعل وجهه حنقا . لا يقوى على العراك . يتابعها بعينيه ويرغب لو يسد أذنيه عما يسمع . الصبى الصغير فؤاد يعرف الغيرة . كيف يستطيع أن يقهر هؤلاء الشباب والرجال . يراهم جالسين حول مائدة كبيرة تمددت فوقها وردة موثوقه بالحبال . يقبل شفتيها أحدهم . الآخر ذراعيها . الثالث يتوسد فخذها . الرابع شعرها . الخامس يركبها . السادس يعبث بيده بينها وبين المائدة . يتلفت الصبى ـ حقيقة ـ يبحث عن دومة . هو الذى يستطيع أن يحمى كنزه . يراه جالسا أمامه فى السرادق شيئا مضحكا حقا ! . لابد أن دومة استقبل اكثر من مرة رسالته التى لم يرسلها اليه . لابد سمع قلبه ضربات قلب فؤاد . لابد أحس دومة برغبة فؤاد فى ضرب جميع من يثرثرون التعليقات . والا لماذا كان يتشاجر كثيرا مع الجالسين فى الدكانتين كل يوم ؟ لايفعل ذلك الا شخص تعددت لديه الأسباب . ثم أين

كان يختفى كل مساء يذهب فيه فؤاد الى المعدية ؟ وردة لا تعود الى منزلها وحدها · دومة لابد كان يوصلها · أين كان يختفى اذن وفؤاد يسمع الصفير الهادىء السارى فى عتمة الليل ويرى بياض الذراع الباعث على الاطمئنان من الشاطىء الآخر ؟

« لماذا يسمونك بليل » ·

« ········ » ·

« هل تغنى ؟ » ·

« ········ » ·

الأنامل القادرة تفك ازرار طوق الجلباب بثقة فتكشف النهدين · يضيع الريق ·

« تخجل ··· ؟ لست صغيرا » ·

« ········ » ·

« هات يدك » ·

ترتعش اليد الصغيرة فى يدها ·

« لاتخف · الا تتعلمون ذلك فى المدرسة ؟ » ·

تتوه اليد الصغيرة فى طريق لبراءة والنار · ان يكشف الأسرار · لايستطيع جذب يده · من كل بقعة فى جسدها يخرج ضوء · لايستطيع ان يقاوم · لما ذا يقاوم ؟!·

« تعال بالليل » ·

أحب أن تتكشف الدنيا جميلة مبهرة · طار فيها ·

« هذا ليس حراما » ·

« ······· » ·

« ساضربك لو قلت حرام » ·

« ······· » ·

« هل تحبه ؟ »

« ······· »

« اذن ليس حراما كما قلت لك » ·

ولا يعود البئر معتما · الجسد رائق الضوء ، يوسع فى الليل ·

« لماذا انت خفيف هكذا ؟ »

« ······· »

« ساحجز لك قطعة حلوى كل يوم » ·

تعرف الذراع الجسورة طريقها تحت قميصه وسرواله· الجسد الصغير يحمر ·

« لاتبك » ·

الشفتان الشبقتان تغتالان الشفتين الوادعتين · انها تعريه تماما ·

« لن تشعر بالقيود » ·

تضحك ··

تدغدغه فيضحك ···

يتسع البئر لايدرى بسيقان كثيرة تلتف حوله · اشعة حانية تخرج من الجسد الأبيض الرجراج ·

تهتز المعدية ·

ما هذا ؟ » ·

لقد تكلم · تضحك ·

« الا تعرف ؟ » ·

« انا ··· أنا فرحان » ·

تقبله .
« أريد أن أنام » .
« اذهب ولاتقل لأحد . تعال يوما واتركه يوما » .
وتضحك ....
« لايجب أن تموت ! » .

لابد أن دومة كان يجلس في الكشك ، أو يربض في مكان ما . فوق سـحابة أو تحت المياه ان لم يكن على الشاطىء ، ويرى كل شيء . هذا ما يجعله يبتسم أو يطرق الى الأرض . ومن يدرى ربما يتذكر كيف انقذه فؤاد ، ويلعنه في سره .

بعد عشرين عاما يبدو دومة شيئا زريا تعسا . لولا أن فؤاد انقذه ماعاش ليصبح هكذا ربما يسخر دومة من كل شيء ، ويتمنى لو تركه فؤاد يموت . الموت كثيرا ما يكون حياة ! . تجربة غامضة تستحق أن تعاش ! . هذا المقرىء التعس لا يريد الانتهاء . دومة لا يكف عن الابتسام والتململ، حسن جالس كحجر . يبدو على مسـتوى الموقف حقا . وضع خاص له بالتأكيد يجعله يجلس هادئا . القلق الذى بدا عليه منذ قليل لابد له سبب خاص ايضا . فؤاد لم يعن شيئا بالنسبة له . فؤاد يدرك ذلك . الآن ايضا لايعنى شيئا. وانقاذه لدومة صدفة منذ عشرين عاما لا يمكن أن يسبب لحسن توترا الآن . لابد انه لم يمض بالسجن أعواما كثيرة لأن الوضع الذى يبدو عليه يحتاج لزمن طويل لبلوغه . «أما انك لاتعرف شيئا حقا » . يقول فؤاد لنفسه شاعرا

بالعتة . على كل حال صار حسن شيئا ودومة شيئا آخر . لا يمكن أن يكره حسن دومة .
« العالى لا يكره الواطى » .
« من قال هذا » .
« انا » .
« اذن الواطى يكره العالى » .
قالت ذلك مندهشة ومتحدية .
« اطلاقا . المساكين طيبون » .
ضحكت ساخرة .
« اذن كيف تفسر اننا نعيش قصة حب لخمس سنوات ولا تنتهى ؟ » .
واحتدت
« ولم يعد لدينا دم ندفعه في شرايينا »
ثم في ضيق شديد .
« ولماذا هذا العته الذى على وجوه الناس ؟ » .

في كل ماقالته كانت كمدفع . صمت كثيرا . منذ عشرين سنة انتحرت وردة لأنهم أجبروها على الزواج . انه لا ينسى . بعد عشرين سنة ستنتحر « رؤى » لتتزوج . وهو ايضا . لماذا يكذب ؟
« انا تعبان » .

مشيا كثيرا جوار النيل الساكن . لا يصدق أن السد العالى يفعل ذلك بالعشاق . لا نسمة هواء . لكن اليوم كان فريدا بحق . سقطت فوق القاهرة ، التى قذف نفسه اليها

لأن خاله يعيش بها ، آلاف الأمتار المكوية من تراب الخماسين كتبت عنها الصحف فى صباح اليوم التالى ، أن القاهرة لم تشهد مثلها منذ عشرين عاما ! ، فابتسم • لم يجد طريقة ليتصل بها يلغى موعدهما • كان عليهما أن يلتقيا وسط الغبار • انهما لم يخلفا موعدا من قبل • لكن العواصف الترابية انتهت قبل الموعد وإن بقي الفضاء أصفر كالحنا عجوزا • تحت الأشجار المتربة كانا يمشيان • حين وصلا الى ميدان التحرير الذى خنقت كل مصباح فيه يد مارد ، فبدت المصابيح كحشرات صغيرة ، أمطرت السماء • كان يعرف أن الناس جميعا تنتظر هذا المطر بعد يوم أغبر طويل مرهق • لكنهما دون الناس جميعا كانا بالميدان الواسع كفم غول • ما فائدة مطر يسقط على بشر نيام في البيوت ؟ أجمل الالعاب لعبها تحت المطر فى مدينته بعيدة الزمان • كانت بالميدان أوتوبيسات قليلة خالية جميعها ، وعربة شرطة تحت الكوبرى تترصد النسمة العليلة لو اقبلت ! • آه • تلك الليلة القريبة صارت بعيدة كأنها مدونة فى كتب صفراء • الفتاة الوحيدة خالفت عرف الغرام :

« نفترق » •

قال فوافقت بعد خمسة اعوام من الركض فى الخلاء وتحت شمس قوية ، زارا فيها كل ما يمكن ان يزوره عاشقان يمتلكان فى كل لقاء قروشا قليلة ! •

« الا تعرفين أن اسمك جميل نادر ؟ » •

« قلت ذلك اول مرة » •

« من أسماك به ؟ » •

لم ترد • لم يحدث فى تاريخ الحب أن انفصل عاشقان على رضا • لكن الدموع تسللت من عينيهما •

« حاولت السفر فلم افلح • حاولت العمل بشركات الانفتاح فلم افلح • كلما ذهبت وجدت شبابا وفتيات ناضرين لا اعرف متى التحقوا بالعمل ولا كيف • انني شخص تعس • لقد فكرت أن ارتكب عملا مجنونا • لكننى خفت » •

لم ترفع وجهها عن المنضدة الصغيرة فى الكازينو الخالى •

فكرت بحق أن أذهب لرئيس الجمهورية » •

قال بتأكيد وضيق لم يفارقه بعد • قفزت الى عينيه صورة غريبة لطفل شاهده عند ابنة خاله التى عادت مع زوجها من الخليج بعد خمسة أعوام قالت انها نسيت فيها لمشى • حطم الطفل طائرة كان يلهو بها فأعطته أرنبا يمشي ببطارية • قذف الطفل الارنب بعيدا فاعطته دجاجة تبيض وتصدر صوتا مزعجا ، فقذفها ايضا وصرخ •

« عايز التليفون ! » •

لقد ولد الطفل بالخارج منذ أربعة أعوام ولم يعرف هو لماذا يريد التليفون بالذات • صفعته أمه فجرى الطفل الى أبيه الذى زجره وطرده • توقع فؤاد أن يتوجه الطفل اليه فلم يفعل • اتجه الى ركن بعيد من الحجرة وجلس واضعا خده على يده ولم يدمع • اشارت امه اليه فلم يزد عن أن يرفع اليها عينيه • ابتسم ابوه واشار اليه ، فلم يفعل غير

ذلك ، وقال بلغه رائعة دون أن يغير من وضعه « تضربوني انتم الاثنين » !! •

لازمته صورة الطفل ولازمه الضيق المجهول يقفزان اليه في الوقت الذى لا يتوقعهما ولا يريدهما • ومنذ أيام قليلة فقط شاهد « روى » تمشي متأبطة ذراع شاب مبهرج الثياب • فى حجرته الصغيرة استيقظ داخله الحنين الدافق • وضع خده على يده اليسرى وكتب الخطاب الأحمق • ماكاد يضعه فى المظروف حتى سرى دم فرح خافت فى شرايينه • كم أحب القبلة الخاطفة التى وضعتها روى على خده فجأة وهى تصعد الاتوبيس فى آخر ليلة ، وتتركه لآخر مرة ، دون خوف من نظرات موظفى هيئة النقل للجالسين داخل الكشك • لماذا فعلت به ذلك ؟ • سؤال ملأ الميدان المغلق كشمس بلهاء ولم ينسه حتى بعد ان ركبت مع الشاب مبهرج الثياب سيارة عند ناصية الشارع • تاق حقيقة لأن يرى اباه ولو مرة ، وان ادرك الآن ان الزمان لا يعود الا مضحكا • فها هو يقف فوق المعدية بعد ان تسلل من الســـرادق المذبحة هاربا ، ليرى « فلة » تخرج من نفس البئر المظلم ، فتعيده الى حقيقة لم يفهمها الا متأخرا • الأرض تدور فى هواء فارغ • لكن حين قالت •

« اين انت الآن ؟ » •

بعد أن نظرت إليه نظرتها الطويلة أدرك أنه لم يصل للفهم الشافي بعد . في الدنيا أماكن عديدة تختلف

و الأرض

ابدا ليس كما تصور • لكنه لم يرد • فالفكرة التى كونهـــا

منذ لحظة لتؤكد فكرته السابقة ، ليس سهلا ان يتخلص منها •
راوغ قائلا :

ــ هل ادفع اجرا ؟

ــ لامانع •

اخرج قرشا ناوله لفلة التى مدت يدها فى صـــدرها تخرج «بك» نقودها • كان القمرشاويا تحت ثوبها ، وراه فؤاد الواقف اعلى المعدية ، التى ما ان وصلت الى الشاطىء حتى تنهد • سيضع قدميه اخيرا على الشاطىء الآخر ناجيا • منذ قليل احس بانه قاتل • الآن يحس انه سيقتل • قفز مسرعا فباغتته •

ــ انتظر ••

لكنه لم يتوقف كثيرا • لحظة ومشى محترقا • خطوات قليلة وسيصعد الى الترام • لم يفكر فى حلم او كابوس • سمع تعليقات صادرة من الكشك الخشبى الذى يجلس فيه عمال الترام موجهة الى فلة القادمة خلفه • الجميع يتحدثون عن النوم الذى لا يجب ان يكون مبكرا ! • صارت فلة جواره فانقطعت التعليقات • فكر ان يلتفت ليرى ما اذا كانت الانوار اطفئت على الشاطىء الذي تركـه حقا ، لكنـه لم يفعل • تساءل كيف لم تسمع فلة ولا المعداوى ولاعمال الترام صوت الهرج والصراخ الذى انطلق من السرادق •

ــ لماذا تسرع ؟

لم يرد • صعد الترام وعلى اول مقعد جلس فجلست امامه • لم يشأ ان ينظر الى وجهها او يتحدث • صعد المحصل وتحركت الترام •

- مكسوف ! ؟

ماذا يفعل ؟ . ربما تبدو القصة القديمة باهتة حين تعاد . لكن قلة تسكب زيتا بارق الاشتعال . كان الترام قد ابتعد فأراد أن يختلس نظرة الى الشاطىء الآخر لكن تعذر عليه . البراميل والاشجار المتكومة التى رآها حين جاء ، تسد عليه الرؤية .

- انها عشرون عاما .
قالت حين لم يرد على سؤالها .
- تعرفين انها عشرون ؟

ابتسمت . الضــــوء داخل الترام مبهر ينعكس على المقاعد الصفراء اللامعة فيزداد . لم يكن غيرهما بالترام .
- زوج امى يريد أن يزوجنــــى من ابنه من زوجتــه السابقة .
« مات عم سمسم اذن » .
- وانا لن اتزوج .
- انها تضحك نفس الضحكة .
- لو اجبرونى ساهرب .
« ولها نفس الوجه » .
- دومة حدثنى فى الزواج وساهرب معه .

تهرب . فكر فؤاد . كل ما فعلته العشرون عاما انها بدلت الانتحار بالهروب . كيف أنها عشرون عاما منحطة !-
- هل خرج حسن المعداوى من السجن ؟

افلت السؤال منه كان حسن لم يقتل منذ قليل . كان فؤاد - مايزال يصدق مافكر فيه عن خرافه ماحدث وكانه مجرد حلم او كابوس . بالفعل لايصدق انه رأى قتلا ودما وسكينا ، وسمع صراخا وصخبا . لقد سمعها وهى تلحق به تقول للمعداوى بشع اليدين « لا تنسى البقرة والحمارة » فكادت تجعل من خياله حقيقة .

- يووه . صار شخصية . عضو مجلس قدر الدنيا .

بدأت سرعة الترام تهدأ . ستتوقف وستغادرها فلة التى اتسعت ابتسامتها . ان لم تفعل يفعل .

- هل ستعود مرة اخرى ؟
بسرعة هز راسه نافيا .
- اذا عدت بعد عشرين عاما اخرى ستأخذ القرش . ستجدنى أو « ريحانة » .
- ......
- « ريحانة » أخر ذرية المرحوم . هذا وعد .
توقف الترام فنهضــت مودعة بيدها التى ربتت بها على خده فى حركة مفاجئة . ماكادت تخطو خطوتين حتى التفتت هاتفة .
- ألم يكن الذى مات اليوم أبوك ؟

تكوم عليه ذهول فظل معلقا ببصره اليها لا [illegible] الكلام ، ولا يسمع صوت همهمه المحصل الذى يتابع جسدها الغاضب المهتز . لقد عرفته بعد عشرين عاما برغم أن وردة

نفسها لم تكن تعرف اباه او امه . هذه الصغيرة التي لم يتذكرها مرة كانت تعرف من هو واين سن في الوقت الذى ظنها في البداية وردة ، فظن ان ما مضى منذ قليل يمكن ان يختفي بنهار يوم جديد او يقظة مؤقتة ! . ولم يصعد من المحطة الى الترام احد فظلت مبهرة الضوء واسعة يكتنفها ظلام الشارع . وحين احس أن المحصل يركز عينيه عليه خاف وانكمش ، وراوده خاطر عجيب ، بأن المحصل سينهض ويتجه اليه ليقول « انت فؤاد ابراهيم عبد الحق الذى كنت تركب معى الترام منذ عشرين سنة ، وانت فى آخر مرة لم تدفع ثمن «التسكرة» ، ومن ثم لى عندك حساب قديم لن يشفع فيه موت ابيك أمس ولا كونك لم تحظ حتى بالمشى فى جنازته ، وسيخرج له لسانه احمر طويلا متدليا يلفه حول عنقه ليخنقه . ضاق صدر فؤاد . فتح النافذة الزجاجية مرتاعا يود لو قفز من الترام التى بدت فجأة كمصيدة فئران محكمة . كاد يصرخ مستنجدا بقوم لا يعرفهم لكنه يراهم ينظرون اليه من فوق جبل اسود يرتدون ملابس بيضاء واسعة يطيرها الهواء كما يطير شعورهم السوداء الطويلة المضفرة كالحبال . انه فؤاد ابراهيم عبد الحق غير مسئول عن موت أبيه . أبوه هو الذى اختار كيف يموت . كما انه ليس بمسئول عن مقتل حسن المعداوى . واذا كان من شيء يحسب ، فهو انقاذه يوما حياة انسان هو دومة . اما ان دومة قد قتل فيما بعد مضحيا بحياته بلا شك فهو الذى اختار ذلك بارادته . ولو كان فؤاد يدرك لوقف بين القاتل والقتيل فى اللحظة المرجوة ولو ادى الأمر الى مقتله . فؤاد يكره القتل ، ولا يكره فى الدنيا غيره . بل هو يكره الدنيا لانه قتولها الذى لايهتم به

احد . لقد ضاعت من العشرين عاما عشرة عند خالة احاطها الخجل حين يأكل وحين يشرب او ينام . وعشرة حاول فيها ان يحظى بلعبة واحدة من لعب الاطفال فسرقت من بين يديه كل الالعاب . ولم يفكر ان يقتل احدا . ترك كل مريد أن يسرق . لم يفكر مرة واحدة ان يقول للص « قف » . والذين سرقوا العابه كثيرون يراهم يجلسون على المقاهى الرخيصة يفتحون حقائب « السمسونايت » ويعدون العملات الأجنبية والمحلية متحدثين عن البضاعة المسافرة والقادمة وعن سعر الحشيش ، ويعلنون فى الصحف عن وظائف مغرية لم يفز بواحدة منها وهو المتخرج من كلية التجارة عصب الحياة فى مصر الآن ! . ويسمع كل يوم عن فضائحهم تتطاير فى الفضاء كما دخان ، أبيض ، أزرق ، أسود ، مغبر ، خانق ، مزدحم . ولا ينسى سحنات وجوههم الملتوية فى الصور التى تتصدر الصفحات الاولى ، وهم يحلنون افتتاح المشاريع الكبرى . كثيرون منهم يشبهون حسن المعداوى كما رآه الليلة . ربما يكون حسن احدهم . ربما هو سبب فشله فى السفر او الزواج بروى التى نسيته . كيف لم يخطر حسن على بال فؤاد من قبل ؟ ماذا لو عرف حسن أن فؤاد فكر فيه على هذا النحو ؟ . يقول فؤاد لنفسه والترام تقف أكثر من مرة وتمضى ولا يركب أحد . لا شك ان حسن سيضحك . لماذا يا اخى ، كل ذلك لأنى لبست بدلة ؟ سيقول حسن ويستمر يضحك .

ينسى فؤاد انه ترك حسن جسدا بلا رأس لن ينهض ابدا . ينظر الى بدلته السوداء الأنيقة والمقرىء يخفض صوته

ويتراخى توقيعه • لقد تعب • الوقت يدخل فى العاشرة • ليل الشتاء ممل • كثيرون يتململون • دقائق وسينتهى كل شىء • من يدرى • ربما يقرأ الشيخ الآخر • لكن هذا يصبح ثقيلا على الحاضرين • عليه هو بالذات • سيصبر • كل ليلة الى انتهاء • النادرة التى وقعت ستظل معه طويلا فلا بأس من الانتظار • بعد عشرين عاما أخرى قد يقص هذه النادرة على الناس • كيف جاء ليرى وجه أبيه فلم يلحق به • وجلس غريبا بين غرباء • يكاد فؤاد يبتسم فيخشى ، لا يعرفه لماذا ، نظرات دومه ! • لا شك ستزدحم الحياة بنوادر أخرى اعجب •

لم يتوقع فؤاد أن النادرة الكبرى ستحدث بعد قليل حيث سيعود المقرىء ليتحمس الحماس الأخير • سيصحوا المتثائبون ويحتفل المتململون ابتهاجا بالصوت الرخيـــــم القوى العميق • سترتفع أصوات الإستحسان والانبهـــار • ستخرج النجوم لتزحم السماء مطلة على الشـــيخ المأخوذ بالقرآن مترقبة خاتمة الليلة صافية النسيم • ربما متسائلة فيما بعد من كان يصدق أن دومة سيتوحش هكذا ؟ • لن يكتفى بفصل الرأس • ستلمع السكين من جديد وهى تطير لتنغرس مرة ومرات فى صدر وبطن حسن وبين ســـاقيه • سيمسك دومة بالجسد مقطوع الرأس من صدره يطعنه • سيقاوم الجسد منتفضا بذراعيه نافضا السكين من يد دومة فى معجزة يتحدث عنها الرجال والنساء والاطفال كاحدى التجليات الالهية التي يمنحها الله لاوليائه !! ينتفض الجسد متمـــرغا على الأرض قافزا كالأخطبوط أكثر من مـــرة ،

شاخبا دما من كل ناحية بصوت كأنه شخير ثور • من فوق المقاعد ستصرخ حناجر • ستجرى سيقان • ستندفع اياد نحو دومة • ستفتح نوافذ البيوت على الصرخات • سيقفز الشيخ مصطدما بالميكروفون ساقطا تحت الاريكة وفوقه • سيقع الشيخ الأخر ثم ينهض منتفضا يدور حول نفسه رافعا ذراعيه فى ذهول • « يالطيف يالطيف يالطيف » يكرر مع كل دورة •

لم يتوقع فؤاد هذه النادرة • ولا المعزون • حسن نفسه يكن مهتما الا بخطئه فى قبول الاستمرار • فدومة لا يزيد .. رقم سيمحوه الليلة • وما كان على عضو مثله أن يمتثل .. غبات الناس بسهولة • سيقولون أن لديه وقتا طويلا بلا .. ن • أنه لا يشغله شىء من همومهم • سينسون أن جلوسه .. اء لرغبتهم • انه يعرف كيف يفكر اولاد الزنا • أمواله .. خيرة علمته اننا حشرات • سيقولون • سيرون القمـــامة التى استشرت فى كل مكان • سيعيدون الحديث عن أبنائهم الذين يكبرون ولا تســـعهم البيوت الضـــيقة القديمة ولا يستطيعون الزواج • والذين ينتظرون عامين واكثر حتى .. عملوا • سيشكون له فقر وبؤس والد الولد الشـــيوعى .. صايع الذى يقبض عليه كل شهر عاما دون ذنب • « هل هذ .. ش بهدلة ؟ ! » انظر اليه • نحيف ضعيف اصفر الوجـــه .. نظارته مكسورة • هل هذا شيوعى ؟ » سيقولون وهـــم .. رفون أن الولد شيوعى بحق • سيشكون له اهتزاز منازلهم .. سبب دق أساس العمارة الجديدة التى يبنيها • كيف أن الاتوبيس الذى دخل المنطقة خرج ! • الجمعية تفتح ابوابها لاســـتقبال البضائع •• تغلقها للجرد • تفتحها لتعلن نفاد

كل شيء . أكاذيبهم التي لا تنقطع كثيرة . لا شك يفكرون فيها الآن طالما ان لديه هذا الوقت كله ليجلس بينهم . كان يجب ان لا يحضر اصلا . مسافر الى القاهرة لرفع بعض الشكاوى الى المسئولين الكبار . اجل ولن يكون كاذبا . رئيس الحى يلوح دائما بصلاته الخفية ، ويصف انفه فيما يفكر فيه . يتراجع حقا كلما صمد هو . لكن هذا يكلفه ــ حسن ــ جهدا عصبيا . زملاؤه فى المجلس أيضــــا يأخذون مــوقف الرئيس . يقدمون افكارا رثة ويحسدونه على ما يقدمه من افكار . اقصى امانيهم حتى الآن أن تخصص للمنطقة عربة لجمع القمامة ، لم يفكروا فى اقامة مصنع يحول القمامة الى ورق أو بلاستيك مثلما فكر هو الآن ، وقرر ان يطرح هذه الفكرة فى الاجتماع القادم ! .

هو الوحيد الذى يقدم اقتراحات عملية مفيدة ، وهؤلاء الجالسون لايثقون بهذا . يبدون له التقدير ويبطنون الاحتقار . كان يمكن ان يعتذر عن عدم الحضور بسبب مشاغله الخاصة . حين يقول الخاصة يشفق الناس عليه . فهو انســــــــان مثلهم يأكل ويشرب ويدخل المرحاض ! . كان عليه ان يعتذر ولديه الف سبب وسبب وجيه . وهو الليلة مشغول بحق . هناك « زريعة » جديدة من الأسماك ستأتى فى الصباح بعد أن جن أمس وترك الاسماك تهرب الى البحيرة . هذه الزريعة لابد أن تبدأ غذاءها فى الأحواض بلحم جميل له طعم السكر . لحم البشر له طعم السكر كما يسمع . دومة لديه لحم البشر .

هه . يريد فلة ؟ لو ان عضو المجلس يستطيع الزواج من فتاة تعمل على المعدية ؟ . وابؤســـا لهذا العضو . وقته

موهوب للمجلس . للحى . للدائر . للشـــعب . للعـــالم والانسانية . أجل ليس أعظم من لص لقيط ليحكم هذا العالم . ليس بعد عذاب اللص اللقيط من عـــذاب ! كل المشـــاكل ستكون بين يديه هشة وتافهة . هذا جوهر العبقرية الغائب عن الناس . لكنه لا يستطيع الزواج من فلة سينالها : سيبنى مصنع التعليب بسرعة وقرية الايتــام . سيخيرها العمل بينهما . سيعلمها كيف تخور كالبقرة أو تنهق كالحمار . وان لم تنجح لن يفعل بها ما فعله ببائعة اللبن . سيقلع عن عادته القبيحة حتى لو كلفه ذلك قتل أبقار وحمير العـــالم كله ! . وسينالها . اشهى فتيات الأرض لن تخذله ولن يتزوجها ! . ما اعظم ان تكون أول امرأة مثل فلة ، حتى ولو بعد هذا العمر الطويل . ليس من بين النساء اللاتى يراهن فى احتفالات الاستقبال والتوديع ، ولا فى افتتاحات البنوك والشركات ، عاريات نصف الجسد ، شفافات الثياب عن النصف الثانى ، واحدة مثل فلة . انه يشم لحمهن فلا يزيد فى رائحته عن رائحة فراخ الجمعية المجمدة ! . الشمس فى صدر فلة . القمر فى بطنها . النهار على وجهها .

ياالله ..! كم يشتهى امرأة الآن بعد هذا العمر . كم يود لو قتل هو عم سمســــم المنحط ، ولم يتركه يموت ميتة طبيعية . هو ــ سمسم ــ الذى بيته سنينا طويلة مع البهائم فاصابه بالداء اللعين . وفلة التى مات أبوها سمسم المنحط ، وتزوجت امها بأحد اتباعه ، لن تمانعه . آه . ماكان على عضو المجلس ان يترك المعدية تعمل حتى الآن . أنها شاهد على زمن قذر . وذاكرة أهل الحى قوية . أنهم يخشونه بحق .

لكن ماذا يحدث لو جن من بينهم ولد وقال له ياحسـن يامعداوى مثلا ! • ينتهى كل شىء • سيرددها الجميع • وربما يغنيها الاطفال « يا اللى انت غاوى تعالى شـوف المعداوى » • والكشك أيضا الذى باع فيه سجاير يوما كان يجب هدمه • صار مكتبا لتنظيم السيارات ، لكنـه ذكرى أيام بشعة اختفى فيها فى مقابر الدخيلة التى اختارها لبعدها ووقوعها على الطريق مكشوفة مما لا يوحى باختباء أحد فيها • ومنها استطاع ان يحصل على التصريح ببناء الكشك ! • ليهدم الكشك اذن فى الصباح ويلغى وجود المعدية • ليست المعدية ملكه حقا ، لكن متى كان يعجز عن ذلك • ان الرجل الذى اخذ بيده منذ قليل ليجلسه جوار فؤاد ، هو أول من سيقع منزله بسبب دق اساسات العمـارة • ولن يجدى صراخ الناس حول تعبهم فى الوصول الى البر الثانى اذ سيضطرون للسير حتى الكوبرى • حسم الأمر • الصباح رباح • المهم ان ينهض بعد ان ينتهى هذا الشيخ مباشرة • هناك أربعة من الصعايدة ينتظرون دومة الليلة ، ليجعلوه وجبة مسكرة لزريعة السـمك القادمة فى الصباح الذى سيختفون قبل طلوعه •

وإذ تهرب منه نظرة اندراء الى دومة ، يلتقطها هذا لأنه كان يرقبه طويلا فتختفى ابتسامته التى كان فؤاد يلاحظها فيختلس بدوره نظرة الى حسن ليجده مطرقا ! • ولا يدرك فؤاد ما تحدثت به العيون فى لحظة خاطفة • يظل آملا أن تنتهى اللحظات الأخيرة حتى لو اختنق الشيخ • الدقائـق الباقية كطرق الصحراء • الشيخ المستيقظ فجأة ايقظ جنيات

البحر ، وجعل الكون كله يسمع • لكن دومة سرعان مايروح منه الوجه ويفكر فى مياه المحمودية • وكيف أنها تحمل اشياء كثيرة • مجارى المدينة تصب فيها • نفايات شركات الصابون والزيت والكسب تنتهى اليها • القرى البعيدة ترسل اليها خطاياها وشرورها جثثا بلا اصابع أو رؤوس • ما يمر يوم الا وتجمع البوليس فى نقطة على شـاطئها وحوله الناس ، ثم ينتهى كل شىء ولا يعود يذكره أحد •

على شـاطىء هذه الترعة تنام نسـاء لفظتهن بيوت المدينة الواسعة • أطفال عراه لايرون القمر فوقهم • تقـع مخاز ، ترتفع سحائب دخان الحشيش من اكثر من غرزة تدبر خطط السرقات الكبرى والصغرى • وهو نفسه، دومة، لاينسى كيف رأى منذ سنين ليست بعيدة عند نهاية الترعة قبل أن تتصل بالميناء رجالا يستحمون بينما يجلس على الشاطىء « حلاق » شاب يرتدى بالطو أصفر فوق جلباب أصفر ، ويضع على حجر قريب حقيبة جلدية بها عدته ، ثم ينهض ليحلق لرجل أسود طويل عريض خلع ثيابه اسـتعدادا للاسـتحمام • دومة يعـرف أن هـذا الحـلاق يحـلق للرجـال رؤوسـهم وذقونهم قبـل أن يستحموا • لكنه هذه المرة رآه يقف على الشاطىء الآخر يحلق عانة الرجل الاسود الذى وقف فاتحا ساقيه ضاحكا فى بلاهة تظهر أسنانه من بعيد • كان الحلاق جالسا أمام الساقين السوداوين وبينهما ممسكا موسى الحلاقة بيد ، وبالاخرى يمسك عضو الرجل الاسود الضخم الضخم ! ، يميله الى اليمين والى اليسار ، الى أعلى والى أسفل ، ويحلق

شعر العانة حوله . كان الرجل الاسود لايكف عن الضحك بفم واسع كحلق البرميل ، بينما خرج الرجال المستحمون جميعا من الماء عراة ووقفوا حولهما يضحكون . كانوا أكثر من عشرة جعلوا يتناوبون ضرب الحلاق على قفاه فيقع موسى الحلاقة من يده بينما الرجل الاسود لايكف عن الضحك . يغسل الحلاق الموسى فى مياه الترعة ليعاود الحلاقة فيعاودون الضرب ، والرجل الاسود يشير الى الحلاق المرتبك المتجمع حول نفسه وقاية من الضرب اشارات باصابعه يفهمها دومة الواقف على الشاطىء المقابل يراقب المشهد ، بانها تعنى تحذيرا للحلاق من أن يصيب الرجل الاسود الضخم بأذى ! . كان الوقت أصيلا والنسيم صافيا . المكان الخالى متسع ليس به الا مياه زيتيه تتحرك على مهل . ولاحركة فى الشارعين الموازيين للترعه . والمبانى العالية التى تشغلها محالج القطن صامتة بيضاء تكاد تدخل مع الفضاء فى لون واحد . لم يكن ثمة شىء يتحرك الا بضع عصافير تتنقل فوق الحشائش القليلة على الشاطىء . قفزت معدة دومة الى فمه وسقط قلبه الى قدمه . صرخ الرجل الأسود الضخم واندفع ساقطا الى الخلف على ظهره كأنما قذفه مدفع والدم ينفجر من بين فخذيه كنافورة ، ثم تقلب على بطنه ويداه تمسكان بأسفله ! ، وصراخ كزئير طائرة قريبة من الأرض يملأ الفضاء حوله ويسد اذنى دومة وحشيا كأنه قادم من كهف ، أرسله منه أسد منسى . طارت العصافير القليلة لمسافة قصيرة ثم عادت تتنقل فوق الحشائش . صار الحلاق هو الذى يضحك ببلاهة رافعا فى يده موسى الحلاقة وفى الاخرى عضو الرجل الاسود الضخم ينز دما بينما

الآخرون الذين كانوا يضربون الحلاق يفرون عراة صارخين صاعدين الشاطىء ويجرون على الطريق كبغال مزعورة . ما كاد دومة يغلق فمه الذي اتسعت به المفاجأة حتي استكن الرجل الأسود على بطنه ولم يعد ينتفض . تباعدت ذراعاه وساقاه قيدا من ضخامة جسمه كحصان ميت . فى اللحظة التى اغمض دومة فيها عينيه دائخا اختفي الحلاق .. فتح دومة عينيه فلم ير غير جثة سوداء وحقيبة صغيرة موضوعة فوق حجر فى اهمال . كانت مياه الترعة زيتيه كما هى . العصافير تلهو . المبانى البيضاء باهته . ظهرت تحت السماء سحب بيضاء رقيقة متفرقة . انصرف دومة ذاهلا ولم يحدث احدا بما رأى . فى الصباح لم يسمع أحدا يتحدث عن الواقعة ، ولا فى صباح الايام التالية ، وحتى الآن ! . لم تذكرها الصحف . ولا محطة اذاعة الاسكندرية المحلية ، ولم يتداولها المخبرون ! ..

كان دومة كلما تذكر الحادثه ابتسم . الآن تتسع ابتسامته اكثر من اى وقت . فالمقرىء يشتعل حماسة ، والجميع يتجهون اليه . ينظر دومة الى وجه فؤاد للمرة الأخيرة فيرى فؤاد فى عينيه تصميما هائلا وغريبا ، وما يلبث دومة ان يقف ويصرخ وتخرج السكين .

ـ قتل عضو المجلس .

يصرخ رجل ودومة يضحك .

ـ قتل حسن بك .

ـ قتل حسن .

ـ قتل العداوى .

هكذا كطلقات الرصاص كانت الكلمات الاخيرة التى سمعها فؤاد وهو يتسلل تاركا الصخب والدم ، لكنه وقد غادر الترام عند ميدان المحطة ، ووقف منتظرا عربة تقله الى القاهرة ، كان يفكر ماذا فعلت العشرون عاما بالعشاق ! . وكانت نظرة دومة اليه وهو ممسوك بأيدى اتباع حســن تخنقه اذ فجأة تذكرها فأطلت واسعة وسط ظلام الليل .

« انتهــت »

كتبت ما بين

عامى ١٩٧٩ ـ ١٩٨٢

للمؤلف

● فى باطن الأرض

رواية « طبعة محدودة » ـ شركة الاسكندرية للطباعة ١٩٧٢ ـ نفدت

● فى الصيف السابع والستين

رواية ـ دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ١٩٧٩

تحت الطبع :

● مشاهد صغيرة حول سور كبير — مجموعة قصص

● المســـافرون — رواية

رقم الايداع بدار الكتب ٨٢/٤٠٤٥

دار ماجد للطباعة ٢ ش بلال – القصيرين – الوايلى

يكره القتل ولا يكره فى الدنيا غيره . بل هو يكره الدنيا لأنه قتيلها الذى لا يهتم به أحد . لم يفكر أن يقتل أحدا . ترك كل مريد أن يسرق . لم يفكر أن يقول للص قف ! .

والذين سرقوا ألعابه كثيرون يراهم يجلسون على المقاهى الرخيصة يفتحون حقائب السمسونايت ويعدون العملات الاجنبية والمحلية متحدثين عن البضاعة المسافرة والقادمة وعن سـعر الحشيش ويعلنون فى الصحف عن مشاريع كبرى وهمية .

هذه هى الخلفية التى يتحرك أمامها وفى قلبها أبطال هذه الرواية . ثلاثة رجال وفتاة . من يصعد ومن يهبط ومن يضيع . وفتاة ليست من عالمنا . من دنيا السحر وعالم الخيال . تختزل الكون فى عينيها والامال . جميلة تعرف أن جمالها الكونى معادل لقبح الواقع من حولها .

وفى لغـة كطلقات الرصاص يختـزل **ابراهيم عبد المجيد** حياتنا ، وفى ساعات قليلة هى زمن الرواية الرئيسى ، يختزل المؤلف ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا فى عمـل مبهر يضيف الى تجربة المؤلف وتجربتنا غنى وثراء .

مطبعة ابوباجبان . ت ٧٤٧٠٩٤


عالم الثقافة
منتدى الكتب العربية والمعربة
علي مولا
عالم الفكر
منتدى الكتب العربية والمعربة
عالم الكتب